

أكثر الروايات
مبيعاً فى العالم

ألفريد هيتشكوك

انتقام امرأة



العالمية للكتب والنشر

انتقام امرأة

ألفريد هتشكوك

رقم الإيداع / 14384 - 2006

الترقيم الدولى 4 - 79 - 6189 - 977

الناشر: العالمية للكتب والنشر

المدير المسئول : سعيد عثمان

*

الجيزة 15 الفاروق عمر بن الخطاب ـ الطالبية ـ فيصل

جمهورية مصر العربية

ت/ 3595973 (012)

نار ولهيب

نار ولهيب

ـ مساء الخير يا أبى . مساء الخير يا عمى سيدنى . هل تريد أن تتحدث إلى يا أبى ؟

ـ أجل يا بنى . تعال اجلس .

قالها ويلارد ستورش بينما كان ابنه ألفين ستورش يغلق باب المكتب خلفه ويتقدم بخجل نحو النار العظيمة المشتعلة حيث جلس أبوه وعمه . كان فى الثامنة عشرة من عمره ولكن يبدو أكبر من ذلك مع انحناءة خفيفة فى كتفيه . وهو لم يكن بالفتى الخارق الذكاء من أنه كان قد أنهى دراسته الثانوية قبل أيام . وابتسم بخجل لعمه الذى قلما تتاح له رؤية .

وقال للعم فى حماسة :

ـ أنا آسف لأنى لم أستطع حضور حفل توزيع شهاداتكم إنه العمل كما تعلم .

ـ طبعا .

قالها ألفين بارتباك بالغ كما يحدث له وجد نفسه بحضور الأخ الأكبر لأبيه ذى الشخصية القوية .

ـ تعال اجلس هنا .

ونهض ويلارذ ستورش عن مقعده الذى قدمه إلى ولده ومضى هو فجلس على الصوفا بالقرب من سيدنى .

وجلس ألفين منزعجا على حافة المقعد وقد صالب يديه على ركبتيه .

وبدأ ويلارذ ستورش كلامه .

ـ حسنا يا ولدى . أعنى عمك وأنا ـ نريد أن نناقش قضية مستقبلك ، أن نعرف ماذا تنوى فعله الآن بعد أن أنهيت دروسك .

هل فكرت فى الأمر بعد حديثنا قبل أيام ؟

ـ الحقيقة لا يا أبى .

وترددت عيناه على ' ألبوم ' الصور الموضوع على الطاولة بينه وبينهما وأضاف :

ـ أحب أن أشتغل بالنحت . تلك رغبتى كما تعرفان .

فقاطعه العم سيدنى :

- صحيح . أخبرنى والدك أنك راغب فى السفر إلى الخارج إلى باريس وروما للدراسة . أما فى نظرى فالنحت والرسم والأدب .. أشياء مضيعة للوقت . والواقع أن معظم الذين يكرسون وقتهم لهذه الفنون المزعومة لا يكون بوسعهم كسب قوتهم إلا بشق النفس . ولكن إذا كانت تلك هى رغبتك فأنت حر . ومع ذلك فثمة قضية النفقات .

إن أباك الذى أصبح عاجزا عن إرسالك إلى جامعة قريبة ما لا يستطيع بالطبع إرسالك إلى أوروبا . والواقع أن مهنة أبيك كمحاسب قد وفت بالكساد للحيلولة دون إرسالك أنت وأمك المسكينة - ليرحم الله ثراها - إلى مأوى العجزة ...

ولحظ ألفين أن والده قد تضرج من واقع أقوال عمه التى لا لباقة فيها ، وتابع العم :

- هذا هو سبب قدومى . أنت تعرف أنى ميسور . بل أكثر من ذلك : إنى غنى . وكما لا تجهل أيضا لم أتزوج أبدا ولم أرزق بأى ولد .

وهكذا رتبت الأمور مع والدك لكى أعرض عليك التمرن تحت

إدارتى رغبة منى فى أن أترك لك ذات يوم ... إيه ...أشغالى ... وفى هذه الحالة تصبح مثلى غنيا ويكون بوسعك أن تعيش الحياة التى ترغب فيها ، أما إذا رفضت عرضى فإنى أقدم إليك من المال ما يكفيك للإقامة سنة واحدة فى الخارج ثم يكون عليك أن تدبر أمر نفسك . هل يبدو لك عرضى عادلا ؟

- أوه ... بالطبع يا عمى .

وبدا القلق على وجه الفتى الذى تذكر أن أباه دائما يتحاشى التحدث إليه عن المهنة التى يمارسها عمه سيدنى .

- بديع . والآن ثمة عدة أشياء يجب أن تعلمها عنى وعن أبيك . هل تعلم أننا نحن الاثنين قد ورثنا عام ١٩٣٨ مليونا ونصف المليون من الدولارات عن جدك ؟ فكر قليلا : مليون ونصف المليون ! وأحسن من ذلك أن المبلغ كان معفيا من جميع الرسوم وضرائب الميراث . وقد سلمنا إياه جدك نقدا قبل موته . مليون ونصف المليون ... ومع ذلك فأبوك الآن لا يملك ، واقعيا ، شروى فقير .

وقاطعه ويلارد ستوش :

- سيدنى ، أرجوك لم نكن قد اتفقنا على إثارة هذا الموضوع .

ـ من العدل أن يعرف الفتى كل شيء يا ويلارذ . ودون ذلك كيف يتمكن من الاختيار وهو على بينة من أمره ؟

وتابع سيدنى وهو يتطلع إلى انزعاج أخيه باحتقار :

ـ أو لا تخشى يا أخى العزيز أن يجرى ابنك المفاضلة والمقارنة ؟

فأجاب ويلارذ بنشافة :

ـ بالطبع لا . تعرف جيدا أن ضميرى مرتاح ، ليس عندى أبدا ما أخفيه عنه .

ـ حسنا جدا . سيقرر الفتى بنفسه إذن بعد أن يعرف كل شيء .

والتفت إلى ألفين وتابع وهو يضع كتابا بين يديه على الألبوم :

ـ اسمع يا ولدى . سوف أريك شيئا أنا الشخص الوحيد الذى قدر له أن يراه . عندما سلمنا والدنا ـ جدك ـ هذا الشيء وهو على سرير الموت لم يشأ أحد أن ينظر فيه سواى وقد أخذته وحافظت عليه بدقة . إنه يحتوى على وقائع العائلة يا ألفين . مذكرات آل ستورش ـ باستثناء أبيك ـ ومنذ أكثر من مائة وخمسين عاما ..

وشده ألفين أمام الحماسة التى استولت على عمه وهو يتحدث

وقد زادت النار المتراقصة فى الموقد بما تنشره من أضواء وظلال على الجدران والحنايا هيأته تحفزا وعينيه القاتمتين النافذتين تألقا ولمعانا .

وقال سيدنى بلهجة فى منتهى الجدية :

ـ سأبدأ بجد جدك دادنى ستورش . هاك صورته . إنه جدنا .

وفتح الألبوم وعرض صورة فوتوغرافية نصف متآكلة تمثل شخصا بطلعة صارمة يلبس ثيابا ثمينة وقبعة عالية .

ـ انظر قليلا ماذا عرف أن يفعل .

وعلى الصفحتين التاليتين كانت قصاصات صحف قديمة مصغرة ملصقة هناك . وانحنى ألفين ليقرأ . وقفزت عناوينها إلى عينيه . حريق فى مستودع . حريق فى إسطبل ... حريق فى مخزن كبير ... حريق فى مستودع حبوب ... حرائق متلاحقة شملت البلاد من ولاية ' النيوا ' حتى ولاية لويزيانا .

وعاد سيدنى يقول أمام الرهبة التى ظهرت فى عينى الفتى :

ـ أجل . كان صانع حرائق متجول اشتهر ببراعته وما كان يقدمه للمزارعين من مساعدة على التغلب على سنوات المحل بحرق

حصادهم لكى يتاح لهم قبض قيمة التأمين . وبالطبع كانوا قبل إشعال النار ينقلون الحبوب من المستودعات والبيادر ، ويفرغون المخازن من محتوياتها ويبعدون الخيول الأصيلة من إسطبلاتها ويخبئونها فى أمكنة أخرى .

وتطلع ألفين نحو أبيه ولكن هذا الأخير أدار عينيه متحاشيا التقائهما بعينى ولده . لقد شوه الخجل قسمات وجهه واستطرد العم سيدنى :

ـ والآن هذا هو أبو جدك . ليلاند ستورش .

ونظر ألفين إلى الرجل ذى الفم القاسى والشاربين العاليين والقبعة المنشاة .

وقال سيدنى :

ـ سوف تأخذك الدهشة .

وبدأ يقلب الصفحات بهدوء ، ثم أشار بإصبعه إلى عنوان أسود ضخم يحمل تاريخ ٩ تشرين الأول ١٨٧١ . وأوشك ألفين أن يطلق صرخة هائلة عندما قرأ ' حريق هائل يجتاح شيكاغو ' .

وقال :

ـ المعروف أن المؤرخين ينسبون هذا الحريق إلى بقرة حمقاء رفست مصباحا بقاشمتها ، ولكن المؤرخين مخطئون . إنه الجد ليلاند دون أى ريب ، بالمصادفة طبعا ، فقد أراد فقط إشعال النار فى أحد المستودعات ولكن ... الريح والبيوت الخشبية وفقدان وسائل مكافحة النار ... هل فهمت ؟

وجمجم ألفين :

أنا لا أصدق . لا أصدق أية كلمة من كل هذا .

ـ قل له يا ويلارد .

وتطلع ألفين إلى والده منتظرا نفيا لم يحصل عليه .

ـ تلك هى الحقيقة يا ولدى .

قالها ويلارد بصوت أبيض .

وتابع سيدنى :

وهاك الآن جدك . والدى المحبوب موتون ستورش .

ورق صوته وهو يشير إلى صورة قديمة تمثل رجلا ذا خدين مكتنزين وقبعة مستديرة .

- أنت لم تعرفه يا ألفين . مات قبل مولدك ولكنى واثق من أنك كنت تحبه . لم يكن أحسن منه على وجه الأرض . كان يحب الأزهار والأطيار والطبيعة ، وأبوك نفسه مضطر للاعتراف بأن جميع الناس كانوا متفقين على حسن الظن فيه .

وقلب سيدنى الصفحة فبدت قصاصة جريدة مؤرخة فى ٣٠ تموز ١٩٠٠ تروى قصة حريق شب فى سفينة بخارية تابعة لشركة " نورث جيرمان لويد " فى هوكن بنيو جرسى " وقد ذهب ضحية هذا الحريق ٣٢٦ مسافرا .

- إنها ضربة المعلم التى سددها أبى . وقد قام بأعمال أخرى فقد أمضى ٢٥ سنة نفذ فى كل سنة منها اتفاقية من هذا النوع وجمع من جراء ذلك مبالغ أسطورية احتفظ بها نقدا كلها فى الحقائب والبراميل .

وهذا ما جعله يتمكن من إعطائنا الأموال النقدية لأبيك ولى حين موته .

وأصلح مجلسه ، وأخرج من جيبه سيجارا . وأحس ألفين وأبوه بالرهبة عندما تناول من جيبه قداحة غاز وأشعل بها طرف سيجاره .

ـ والآن أريد أن أريك الفرق بينى وبين أبيك . انطلقنا من نقطة واحدة تماما ، كل منا بثلاثة أرباع المليون من الدولارات نقدا . هذا لسبع سنوات خلت ، وبالطبع لم يكن يمكننا توظيف هذا المال لأن ذلك يحتاج إلى أوراق وأسهم بنكية وما شاكل . وبالطبع ما كان أحدنا يستطيع ذلك . وكل ما فعلناه أن تناول كل منا حصته ومضى لطريقة .

وقد نجح أبوك فى تبذير حصته خلال بضع سنوات حتى آخر فلس .

ـ ليس هذا صحيحا تماما يا سيدنى . أنا لم أبدد مالى بالمعنى المفهوم ....

ـ أوه ! حسنا جدا . أحسبك سوف تعتز بكرمك وتتباهى بسخائك الأحمق ...

ـ لا أريد التباهى كما تقول بل أريد فقط أن يعرف ابنى الحقيقة كاملة .

وللمرة الأولى رفع ويلارد رأسه :

ـ إذن قلبا أنت نفسك .

التفت ويلارد ستورش نحو ابنه وراح يتأمل محياه البرىء . إنه صورة طبق الأصل من أمه المسكينة ، برقتها ولطفها وإحساسها بالجمال .

وأحس بالمضض لأنه اضطر الآن إلى كشف كل الحقيقة أمام ابنه بعد أن كان قد أخفاها طويلا عن أسرته الصغيرة .

آه .. ما أشد العقاب الذى نزل به الآن لأنه ترك سيدنى يدفع نفقات تعليم ولده .

وخاطب ألفين بهدوء :

ـ لا أملك الكلمات القوية التى تستطيع التعبير عن الخجل الذى داهمنى عندما علمت كيف جمع أبى هذه الثروة . عندما علمت أنى السليل الرابع لأسرة من هذا النمط . كانت صدمة مروعة لى ، أما أنت فعزاؤك أن ليس لدى أبيك ما يؤاخذ عليه . وللعودة إلى الموضوع أقول لك إن ما يطلق عليه عمك " السخاء الأحمق " لم يكن سوى وسيلة محدودة لإصلاح الشرور الكثيرة التى ألحقتها تقاليد هذه العائلة الرهيبة بالآخرين ، تلك التقاليد التى قرر سيدنى على اتباعها .

وفغر ألفين فمه على سعته دهشة وقال :

ـ تقصد أن العم سيدني ...

ـ أوه ... أجل فقد سيطرت على عمك فكرة استمرار سلالة ستورش فيه كما كان يقول . كان ينوي أن يضفي علينا شهرة كشهرة آل بووجيا .. أنا واثق من أن كل شيء مسجل هنا .

وقلب ويلارد عدة صفحات من الألبوم وتجاوز صورة والده ثم وضع تحت عيني ألفين ثمرات عمل سيدني .

' في ناتشيز بولاية ميسيسبي حريق في غرفة الألعاب ، نيسان ١٩٤٠ الحصيلة ٢٠٨ ضحايا ' .

قرأها بصوت عال فتنهد سيدني بحنين وقال :

ـ تلك كانت بدايتي .

ـ حريق في كوكونت غروف ، وهو ملهى ليلي في تشرين الثاني ١٩٤٣ بلغ عدد الضحايا ٤٩٠ قتيلا .

ـ ضربة معلم . ولم أكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين يومها .

ـ تموز ١٩٤٤ حريق في سيرك هارتفود أسفر عن ١٦٨ قتيلا .

ـ بقطع النظر عن الحيوانات .

ـ حريق فى فندق بأتلانتا كانون الأول ١٩٤٦ حصيلته ١١٩ قتيلا .

وقال سيدنى لألفين :

ـ هل لاحظت أنى لا أنفذ أكثر من اتفاقية كل سنتين . أنا لا أريد تبديد موهبتى كما ترى . هل تفهم ؟

أغلق ويلارد ستورش الألبوم بعنف وقال بصوت متعب حتى الموت :

ـ ما فائدة الاستمرار ، أنا واثق من أنك فهمت كل شىء يا ألفين .

فأجاب الفتى :

ـ أجل فهمت .

وبدا وجهه متعكرا بشكل أقلق والده الذى تابع :

ـ ولا عد إلى " سخاشى الأحمق " فهمت عدم جدوى إفشاء أمر سيدنى للبوليس فقد كان بارعا جدا لدرجة لا تسمح بقيام أى ممسك عليه . عندئذ فعلت ما كنت أحسبه خيرا : أنفقت حصتى من الميراث على عائلات أولئك المساكين الذين كان عمك يرسلهم إلى العالم الآخر . كنت أرسل شيكا بقيمة ألف دولار إلى أقرب

شخص لكل ضحية أطلع على اسمها فى الصحف ، وقد مضت أرسل مثل هذه الشيكات مادام المال متوافرا بيدى ... وبعد ذلك لم أجد بدا من إجبار نفسى على عدم التفكير فى ذلك .

ـ أود أن أضيف كلمة إلى هذا العرض المؤثر إذا كنت تسمح . لا ضرورة للقول إنى أشعل الحرائق للذاتى الخاصة ، فأنا أتقاضى مبالغ طائلة للقيام بذلك مثال ذلك حريق الملهى الليلى فى بوسطن عاد على بمبلغ ٧٥ ألف دولار ويمثل هذا المبلغ عشر الثروة التى ورثها زبونى عن زوجته التى قضت فى الحريق . كان هذا الوارث السعيد واحدا من الذين تلقوا أحد شيكات أبيك بقيمة ألف دولار . هاك ما جعلنى أصف كرمه بالغباء .

فرد ويلارد :

ـ كون شخص لا يستحق المبلغ لا يغير من الأمر شيئا فثمة الكثيرون الذين يستحقونه .

والتفت بأمل عظيم نحو ولده :

ـ أجبنى يا ألفين . هل تعتقد أنى كنت غبيا باستعمال مالى على هذه الشاكلة ؟

قال هذا بلهجة مفعمة أسفا زلزل كيان والده :

ـ لا أعتقد ومع ذلك فلا أستطيع منع نفسى من التفكير فى أنه كان ينبغى لك أن تبقى بعض هذا المال لى .

حدق ويلارد ستورش فى ابنه بنظرة منكرة وقد دهمه الشعور بأن دماءه تفر من عروقه .

وقال العم سيدنى بلهجة منتصرة :

ـ آه .. هل رأيت ؟

ثم انحنى وقد برقت عيناه سرورا :

ـ حتى أى حد تنوى الدراسة فى أوروبا يا ألفين ؟ أقصد كم يستغرق أمر تحقق أهدافك هناك ؟

ـ أنا مستعد لكل شىء يا عماه .

ـ إذن أصغ لى واتبع نصيحتى وسأدلك على الطريقة التى تمهد لك سبل العيش حرا وثريا طوال أيام حياتك .

وصاح ويلارد غاضبا :

ـ كفى يا سيدنى . لا يمكن الاستمرار فى هذا الحوار الرهيب .

فذكره أخوه بعنف :

ـ لقد أبرمنا اتفاقا فيما بيننا ، أن نترك ابنك لحرية اختياره .

وسأل ألفين بهدوء :

ـ ماذا ينبغى لى أن أفعل يا عماه . أن أصبح مشعل حرائق كى لا تضيع تقاليد الأسرة ؟

ـ بالضبط . ها قد تقدمت بى السن كما ترى ... فى أود الآن أن أؤمن وريثا خليفة وهذا أمر له فى نظرى أهمية كبرى . كثيرا ما أفكر فى أبى فى جدى ، فى هؤلاء الرجال المقدامين على الرغم مما يقوله أبوك .

وألقى سيدنى يده على كتف ابن أخيه :

ـ يجب أن تأخذ المشعل يا ألفين .

وتضرع ويلارد :

ـ لا تصغ إليه ...

ـ أرجوك يا أبتاه ... دعنى أفكر بمفردى .

وهب ألفين واقفا ودنا من النار . وتأمل اللهب المتراقص لحظة .

ثم رفع عينيه بهدوء إلى زوج من الكئوس صنعهما هو نفسه من الصلصال . ومد يده وداعب طرف واحد منهما :

أريتهما أمس إلى مدير مدرسة الفنون الجميلة ، فقال لى إنهما لا يقلان جمالا وقيمة عن تلك التى كان يصنعها دوناتيلو عندما كان فى مثل سنى .

واستدار ناحية أبيه :

ـ كان دوناتيلو واحدا من أعظم نحاتى عصر النهضة فى إيطاليا .

وتقدم ويلارد ستورش وقد ابيض وجهه كالشمع ، وظهر عليه الرعب وقال بصوت ضارع :

ـ ألفين . لا تستطيع ، لا ينبغى لك هذا غير ممكن .

فأجاب الشاب بصوت حازم :

ـ آسف يا أبتاه . أنا لا أستطيع قتل موهبتى من أجل السمو الروحى .

ـ أحسنت يا ألفين .

وبدا وجه العم سيدنى مشرقا . وابتسم له ابن أخيه وقد شعر

بالراحة لأول مرة . واندفع نحو خزانة الشراب كما بفكرة طارئة وأخرج زجاجة براندى .

وقال بصوت بلا نبرة :

- لم تسمح لى أبدا أن أشرب يا أبتاه . كنت تقول لى دائما إنى ما أزال صغير السن . أما الآن فأحس أنى كبرت . هل تشاركنى يا عماه ؟

- بكل سرور يا ألفين . بكل سرور ....

وعاد ألفين إلى المدفأة وتناول الكأسين وملأهما . وناول عمه أحدهما .

- سنكون أنت وأنا يا عماه أول من يشرب فى هاتين الكأسين الأصيلتين من إبداع ستورش .

ورفع الاثنان كأسيهما ولكن ألفين أوقفها عندما مست شفتيه بينما جرعها سيدنى دفعة واحدة .

وبعد أربع دقائق كان العم سيدنى قد مات .

وتمتم ويلارد ستورش مشدوها وهو ينظر إلى الجسد المزرق المدد عند قدميه :

ـ أنا .. أنا لا أفهم ..

فشرح ألفين :

ـ إنها الكأس . لم أشوِ الصلصال فورا ولذا فقد مزجته بمركب الرصاص لكى لا يشوه شكله ، وكنت أنوى حرقه للقضاء على تأثير الرصاص . وهذا ليس بالأمر الصعب إذ يكفى إضافة بعض الكحول إليه .

ـ الكحول ؟ تقصد البراندى ؟

ـ أجل . الكحول ، و الرصاص يمتصه فى عروق العم سيدنى الآن .

وتنهد ألفين بعمق وهو يلقى بمحتويات كأسه إلى النار .

وقال لأبيه بلا مبالاة :

ـ لا بد من إخطار البوليس الآن ، سنقول لهم إننا تركنا العم سيدنى هنا ، فأقدم على استخدام أحد الكأسين وهو لا يعرف حقيقة أمره .

وسوف أطبع بصماته على الزجاجة فوق بصماتى ، أنا واثق من أننا لن نتعرض للمتاعب .

ـ ولكن لماذا يا ألفين ؟ لماذا ؟ حسبتك مستعدا لكل شىء من أجل الذهاب والدراسة فى أوروبا ، حسبت أن النحت هو هدف حياتك .

ـ هذا صحيح يا أبتاه ، سوف أذهب فى كل حال إلى أوروبا وسأعود نحاتا كبيرا .

وتطلع إلى أبيه دون أن يبدو عليه أقل تأثير وتابع :

ـ كان العم سيدنى غنيا جدا وأنت وريثه الوحيد وجميع أمواله ستصير إليك وأعتقد أنك هذه المرة ستكون أكثر تعقلا .

ونظر ويلارد ستورش فى عينى ولده القاسيتين النفاذتين فوجد فيهما نظرة باردة كالجليد ، وكرر ألفين :

ـ أليس كذلك .

وهز ويلارد رأسه بينما غمره اليأس شيئا فشيئا .

الشاهد الصامت

الشاهد الصامت

شعر (مارتن أردن) بقلبه يخفق لهفة وحنينا حينما وطئت قدماه أرض الطريق المعهود الذى بدا نوره مبهجا تحت أشعة شمس الخريف الذهبية . ذلك الطريق الموصل إلى تلك الأرض التى طالما قضى فى أرجائها أياما سعيدا كان فيها خالى البال قليل الاهتمام بالحياة وأعبائها ، وهذه هى الغابات التى طالما مارس الصيد فى أنحائها ، وهذه هى الجداول التى لم يأل جهدا فى صيد الأسماك من مياهها .

ولكنه لم يجد لها فى نفسه تلك الروعة وذلك الطرب اللذين طالما استوليا على مشاعره كما صار على هذا الدرب وعلل ذلك بأن قضاء الشهور الطوال فى محاربة اليابانيين فى أعماق الغابات الاستوائية قد أخمد فى مشاعره ذلك الحنين إلى الهواء الطلق ، ولولا ذلك الخطاب المزعج الذى تلقاه من صديقته (سالى كارتر) لما فكر فى الحضور إلى تلك الغابات الشلالية والظل مقيما فى مستشفى النقاهة حتى تعود ساقه المصابة من شظية قنبلة إلى

حالتها الطبيعية . وذكره وخز الألم بأنه لابد له من الركون إلى الراحة والاستجمام حتى يتم شفاء إصابته .

واضطره التعب إلى الجلوس على كتلة من الخشب وجدها على قارعة الطريق .

وأحس بخطاب سالى كارتر ينطوى فى جيبه فأخرجه وأخذ يقرؤه وكان فيه : " أنا خائفة يا مارتن ، بل وينتابنى الفزع ، وأنت الشخص الوحيد الذى أستطيع أن أطلب منه يد العون والمساعدة . إنى أشعر كأن روحا من أرواح الشر تأخذ بناصيتى وتملك على قيادى ، أسرع يا مارتن وبادر بالحضور .. أرجوك "

وضم مارتن شفتيه غضبا وغيظا ، وقال يخاطب نفسه :

" أنا أعرف من أفزعها ، فهما أبوها وخالى ، اللعنة عليهما ، لماذا كان أبوها ذلك الأحمق ولماذا كان خالى ذلك الوغد الحقير "

واستأنف مارتن سيره وهو يتنهد حزنا وأسىً ، إذ قدر له أن يعكر عليه صفو غرامه وحبه ، ذلك الحقد المتبادل بين خاله ووالد سالى .

وأزعجه أن ترسل له الفتاة ذلك الخطاب الذى لم تكن لتفكر فى

كتابته إليه لو لم يكن لديهما من الأسباب القوية والدوافع الجدية ما يرغمها على الاستنجاد به .

كانت مزرعة (هيرام كارتر) والد سالى رثة المنظر تبدو على مظهرها آثار الإهمال والفوضى ولكن مارتن كان يراها فردوسا أرضيا يجد فيه الطمأنينة والسلام وينعم فيه بالوفاء والغرام ويلقى فيه من عطف سالى وحنانها ما يساعده على نسيان ذكريات أيام حرب الأدغال الأليمة وما لاقى من آلام وأهوال .

ونبح جرو صغير حينما اقترب مارتن من المزرعة وفتح الباب وخرجت سالى تنهر الأليف المدلل . ثم لمحت مارتن فهرعت إليه تستقبله . وكأنما كانت تطير فى الهواء لفرط خفتها ورشاقتها . وداعب الهواء شعرها حتى انتثر عقده فى موجات تشوبها حمرة كحمرة أوراق الأشجار الجافة التى تتطاير مع نسيم الخريف . وصاحت به وقد تهدج صوتها شوقا ولهفة :

ـ مارتن . شكرا لله أنك حضرت فى الوقت المناسب .

أمسك الفتى بالفتاة برهة وأخذ يتأملها فى صمت وسكون حتى تغلب على الثورة العاطفية التى هاجت فى فؤاده . وبعد لأى استطاع أن يكبح جماح عاطفته . وقال لها فى رزانة وتؤدة :

ـ أنا سعيد لعودتى يا سالى . وإنى لأشعر كأنى فى الفردوس .

وأقبل هيرام كارتر يتهادى متمهلا على الطنف الذى كان ينوء مقوصا تحت ثقله وهتف به قائلا :

ـ مرحبا بك يا مارتن . هل جئت لصيد السمك ؟

فصافحه مارتن وأجابه قائلا :

ـ لقد جئت لزيارة خالى جاسون لبضعة أيام . وربما وجدت بعض الفراغ لصيد السمك .

فاكفهر وجه هيرام وقال له :

ـ أنا أغبطك كثيرا على صحبة جاسون جرانت . وإنى لأفضل الأفعى على صحبته . لقد اقترضت منه نقودا فى الربيع الماضى وهو اليوم يحاول أن يختلس منى مزرعتى .

واستدار على عقبيه . ثم تمهل هنيهة ووقف مترددا كأنه يود أن يقول شيئا ما .. ولكنه عدل عن ذلك وانطلق مسرعا إلى داخل المنزل وأقفل الباب خلفه .

وقالت سالى بصوت مختنق :

ـ مارتن . أنا خائفة مرتاعة لقد صار والدى إلى هذه الحال منذ

أن هدده خالك بنزع ملكية المزرعة .

وتوقفت عن الكلام كما خانتها شجاعتها ولم تستطع الاستمرار فى الإفضاء إليه بخبيئة نفسها . ولكنها استعادت رباطة جأشها وعادت تقول له متلعثمة :

ـ لقد أقسم أن يقتل جاسون جرانت قبل أن ينتزع منه المزرعة .

فأخذ مارتن يديها فى يديه وقال لها :

ـ اسمعى يا سالى . أظنك تبنين من الحبة قبة . إنى سأتفاوض مع خالى فى هذا الموضوع وربما استطعت إقناعه بتجديد مدة القرض .

فأجابته سالى فى لهفة ظاهرة :

ـ لقد أتلف الجفاف محصول هذا العام ولو أنه أمهلنا للعام القادم لاستطعنا تسديد القرض .

فأجابها مارتن قائلا :

ـ هذه هى الطريقة التى يحل بها هذه المشكلة . والآن أعطينى قبلة وعدينى ألا تشغلى بالك بهذا الموضوع بعد الآن .

* * *

أخذ مارتن يلقى نظرة فاحصة على مزرعة خاله جاسون جرانت حينما اقترب منها فرآها مكانا موحشا منعزلا تنقبض النفس لمرآه يتقدمها فناء أحيط بسياج من الطين تناثرت فى أرجائه آلات زراعية علاها الصدأ ، ولقد وجد فيها مارتن مرآة صادقة لحياة جاسون جرانت المجدية القاحلة التى لا غاية لها ولا لذة للإنسان فى أن يحياها .

وابتسم مارتن وهو يناضل كى يفتح الباب الخارجى للمنزل إذ تذكر أن الباب كان على نفس هذه الحالة من الاستعصاء وإحداث الصرير لما أغلقه خلفه حينما غادر المزرعة لآخر مرة منذ عامين . وازدادت ابتسامته لما خطر بباله أن المثل الأعلى لخاله هو ألا يضيع وقته أو جهده أو ينفق ماله فى ما لا يعود عليه بالنفع المادى المباشر .

فتح مارتن الباب الخارجى بعد جهد . ثم اجتاز الطنف . ولما وضع يده على مقبض قفل باب المطبخ شعر بانقباض ورهبة يساورانه وأخيرا أدار المقبض ودخل الغرفة ، فوجد مصباحا زيتيا لا يزال مضيئا يرسل أشعته الباهتة فى أرجاء الغرفة ويلقى ظلا مفزعا كأنه نسر جاثم على جسم جاسون جرانت الذى كان

مستلقيا على أحد المقاعد وقد استند بذراعه على مائدة صغيرة .

وظن مارتن خاله نائما . ولكنه عرف الحقيقة الهائلة لما وقع نظره على اللطخة الدموية التى خضبت قميصه بلون قرمزى ناقع وقد انتشرت حول سكين كبير قد استقر فى صدر الرجل المنكود .

وقف مارتن ذاهلا عازب اللب مسلوب الرشاد . يتأمل أشياء تافهة مثل علبة اللحم المحفوظ المفتوحة وقارورة الخمر الموضوعتين على المائدة إلى جانب صفحة من كعك الزبيب .

وانتبه مارتن إلى صوت وقع خطوات متلصصة خلفه ، والتفت وراءه فوجد رجلا نحيف الجسم له شاربان مصبوغان باللون الأصفر من كثرة التدخين يقبل نحوه متردداً . ثم سأله قائلا :

ـ هل مستر جرانت موجود ؟

فأجابه مارتن بلهجة صارمة :

ـ لقد مات . ماذا تصنع هنا ؟

فقال الرجل متلعثما :

ـ مات . كيف أمكن هذا ؟ . فليس من المعقول أن يرسلنى مستر رينشو للتحدث مع رجل ميت .

فقاطعه مارتن قائلا :

ـ ولماذا أرسلك مستر رينشو لمقابلة خالى ؟

فقال الرجل :

ـ أنا " سام سمول " المستخدم عند مستر رينشو ـ ولقد أرسلنى كى أستفهم من المستر جرانت عما إذا كان من الممكن أن نبدأ فى قطع الاشجار التى اشتريناها منه فى الغد .

فسأله مارتن :

ـ عن أية أشجار تتكلم ؟

ـ لقد اشترى مستر رينشو أشجارا من خالك ، ونريد أن نقطعها بأسرع ما يمكن . فأجابه مارتن قائلا :

ـ أظن أن مسألة الأشجار هذه ستؤجل لأن خالى جاسون جرانت قد قتل .

فحدق الرجل فى وجه مارتن وسأله قائلا :

ـ هل تظن أن الشيطان قد قتل خالك ؟

فأجابه مارتن :

ـ لا أظن أن الشيطان يضيع وقته فى قتل الناس فى هذه الأيام . لأنه يستطيع الانتفاع بهم وهم أحياء . وما الذى يدعوك للتفكير على هذا النحو السخيف ؟

فارتعد الرجل وهو يجيبه قائلا :

ـ لقد كان هيرام كارتر يحدثنى عن جاسون ذات يوم وقال لى إن الشيطان قد بعث لك بتابعه . وإن جاسون من أتباع الشيطان . وإنه قد يغدربه يوما ما فيرديه .

فقال مارتن :

ـ هل قال لك هيرام كارتر هذا الكلام ؟

فأجابه الرجل :

ـ نعم وهو يكره جاسون العجوز كرها عميقا ولعله هو الذى قتله فما أظنه يحجم عن إتيان هذه الفعلة .

فقال مارتن :

ـ يجدر بك ألا تلفظ بمثل هذه الأقوال التى قد تجر عليك المتاعب .

فقال الرجل :

ـ أنا أعرف جيدا كيف ألزم جانب الصمت وسأعود الآن لمقابلة مستر رينشو وأخبره بما حدث .

فأجابه مارتن :

ـ حسنا ، ويجدر بك أن تطلب من المستر رينشو أن ينبئ العمدة بالحادث .

واستدار الرجل منصرفا ، ولكنه عاد والتفت إلى مارتن وقال له :

ـ هل تعلم أن نان بيترز خادمة خالك تعتقد اعتقادا جازما فى ما ذكره هيرام كارتر عن العلاقة بين خالك والشيطان ؟

فقال مارتن :

ـ ما الذى يدعوهما إلى الاعتقاد فى مثل هذه الخزعبلات ؟

فأجابه الرجل :

ـ إنى لأعجب لهذا .

* * *

أطل العمدة من باب المطبخ بوجهه المفرطح المكتنز وقال :

ـ لقد خابرني أنسون رينشو تليفونيا وأنبأني بالحادث ، ويصعب على أن أصدق النبأ. فإن جاسون كان معتكفا معتزلا منطويا على نفسه ولم أكن أتوقع له هذه الخاتمة .

فأجابه مارتن :

ـ لقد وقع ما وقع ومهمتنا الآن هى اكتشاف الجانى .

فقال العمدة :

ـ أظن أنه يجدر بنا أن ننتظر حضور أنسون رينشو لأنه قد يساعدنا مساعدة جدية نظرا لاتصاله بالمجنى عليه ومعرفته الوثيقة به .

وأطل العمدة من النافذة وقال :

ـ على أية حال فها هو أنسون رينشو قد أقبل .

دخل أنسون الغرفة وأحنى رأسه تحية للعمدة ثم مد يده يصافح مارتن وقال له :

ـ أنا سعيد لعودتك سالما من ميدان القتال ويؤسفنى أن تقابلك مثل هذه المتاعب عند حضورك .

وقال العمدة يخاطب أنسون :

ـ أنا مرتاح لحضورك فأنت كنت على اتصال بالجنى عليه ولعلك تستطيع أن تدلى إلينا بمعلومات تؤدى إلى كشف الحادث .

فنفض أنسون الغبار بعناية عن أحد المقاعد قبل جلوسه عليه .

ولما تذكر مارتن الأقذار التى خاضها أثناء القتال وأوكار الثعالب النتنة التى كان يتحتم عليه أن يجثم فيها كامنا متربصا بالعدو . شعر باحتقار للرجل التافه المتعجرف المغرور الذى يأنف من أن يعلق الغبار بثيابه .

وأشعل أنسون سيجارة ونفث من فمه حلقة من الدخان وقال :

ـ أستطيع أن أدلى إليكم بمعلومات قد تلقى بعض الضوء على غوامض الحادث .. اشتريت بعض الأشجار من جاسون وحضرت أمس ودفعت له ألفى دولار نقدا ثمنا لها . ونصحته بأن يرسل المبلغ إلى المصرف ولكنه رفض . إذ كان غاضبا مهتاجا لأن خادمته سكبت شيئا من البترول على الأرض أثناء أن كانت تملأ المصباح . ورفسها فصاحت به المرأة قائلة :

ـ سأقتلك انتقاما لفعلتك هذه يا جاسون جرانت .

فنهض العمدة قائلا :

ـ أظن أنه يحسن أن نسرع باستجواب هذه المرأة . فلا يستبعد أن تكون قد عادت بعد انصراف أنسون ونفذت تهديدها . خصوصا وأن الجريمة ارتكبت بسكين أخذ من مطبخ المجنى عليه .

ـ لقد كانت تبدو عليها عند انصرافها علامات اهتياج جنونى حتى أنها اختطفت قبعتها وانطلقت دون أن تمسح البترول الذى سكبته على الأرض .

فقال مارتن فى هدوء وتؤدة كأنه يزن كلماته قبل أن ينطق بها :

ـ وهل وضع خالى جاسون النقود فى مكان أمين ؟

فتردد أنسون قليلا قبل أن يجبه قائلا :

ـ كلا . لقد كانت موجودة على المائدة حينما بارحت الغرفة ، ولم أنتظر كثيرا عقب انصراف الخادمة لأننى كنت على موعد مع بعض أصدقائى لكى نقامر فى حانة الدب الجبلى التى تبعد ثلاثين ميلا من هنا وتعجلت فى الانصراف حتى أصل فى الموعد .

فسأله مارتن :

ـ هل تستطيع تحديد وقت انصرافك من هنا ؟

فنظر إليه أنسون نظرة شزراء وقال له :

ـ نعم ، فإنى أذكر أن تلاميذ المدرسة انصرفوا عند انطلاقى فى سبيلى إلى الحانة وعلى ذلك يكون الوقت حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وسأله العمدة قائلا :

ـ وهل قابلت أحدا على مقربة من هنا ؟

فأجابه أنسون :

ـ نعم فقد قابلت هيرام كارتر على مسافة ميل واحد تقريبا ، وكان متجها نحو هذا المنزل .

فقال العمدة :

ـ لقد كان هيرام ساخطا على جاسون منذ أن هدده بانتزاع ملكية مزرعته .

* * *

تخيل مارتن المتاعب التى قد يجرها هذا الاتهام على هيرام وابنته سالى . وأسرع فقاطع العمدة قائلا :

ـ لا تنسَ أن هيرام لم يكن يعلم شيئا عن هذه النقود . وأن أنسون رينشو والخادمة نان بيترز هما الشخصان الوحيدان اللذان كانا يعلمان أن النقود فى حوزة خالى . ويجدر بك أن تضعهما فى قائمة المشتبه فيهم .

فنهض أنسون واقفا وقال :

ـ أنا أحتج على هذا الاتهام ولا ألومك إذا كنت تريد أن تدافع عن والد حبيبتك . ولكن الدفاع لا يكون بإلقاء التهم جزافا على الأبرياء .

فقال العمدة :

ـ هذا صحيح . ولقد هدد هيرام كارتر بأنه سيقتل جاسون جرانت إذا حاول أن ينتزع منه ملكية مزرعته . ويبدو أنه قد نفذ تهديده .

فقاطعه مارتن قائلا :

ـ لاحظ أن النقود لم تكن موجودة على المائدة عند دخولى الغرفة . وهذا يدل على أن السرقة هى الدافع إلى الجريمة .

فأجابه العمدة :

ـ هذا محتمل . وفى هذه الحالة يتحول الاشتباه نحو الخادمة نان بيترز . لقد أوقع جاسون رهنا على منزلها وكان يسخرها لخدمته دون أن يدفع لها أجرا وكان يعاملها معاملة الكلاب . وهذا دافع قوى يدفعها لارتكاب هذه الجريمة .

فقال أنسون :

ـ إن هذا لا يمنعنى من أن أنفض يدى من هذا الحادث . وأستطيع أن أبرهن بشهادة ثلاثة من أصدقائى على أننى كنت على مبعدة ثلاثين ميلا من هذا المكان عند وقوع الجناية .

فصاح به مارتن قائلا :

ـ إننا لم نعرف للآن وقت ارتكاب الجريمة . وخير لك أن تبقى دليل النفى الذى تتمسك به إلى أن يحدد الطبيب الشرعى وقت وقوع الجناية .

فأجابه أنسون قائلا :

ـ أنت مخطىء فى هذا الزعم . فإن وجود هذا المصباح مضيئا للآن يعنى أن جاسون جرانت كان حيا إلى ما بعد غروب الشمس وحلول الظلام حتى أنه أشعل المصباح ولا يعقل أنه قد أشعله قبل

ذلك .

وأنا أستطيع أن أبرهن على أنني كنت بالحانة قبل حلول الظلام بساعة على الأقل .

فأجابه العمدة قائلا :

ـ وهذا يخرجك من دائرة الاتهام ؟ فلو أن جاسون قتل قبل حلول الظلام لما ظل هذا المصباح مشتعلا للآن .

ثم ألقى نظرة على ساعته وقال :

ـ يتعين على الانصراف الآن . إذ لا بد لى من إبلاغ الحادث إلى مجلس الولاية بعد استجواب الخادمة نان بيترز .

* * *

لم يكن المنزل الذى تقطنه نان بيترز أكثر من كوخ حقير . وأخذ مارتن يحدث نفسه هازئا بالفكرة التى ترمى إلى ارتكاب جريمة قتل من أجل امتلاك هذا المكان الرث القذر .

وقابلتهما بنت صغيرة قالت لهما :

ـ إن جدتى طريحة الفراش وقد أصيبت ساقها حتى لا تقوى على المشى .

فقال العمدة وهو يزيح الطفلة من طريقه :

إنى أريد أن ألقى عليها بعض الأسئلة . ولا أستبعد أن تكون حكاية إصابتها وعجزها عن المشى مجرد ادعاء .

واقتحم الغرفة فوجد المرأة مستلقية فى فراشها وقد بدت عليها علامات الهرم والتهدم وأمارات الإعياء والوهن والعجز، وكان يخيل لرائيها أنها لا تستطيع أن تمد يد الأذى إلى أضعف المخلوقات . فكيف بقتل رجل قوى . وصاحت المرأة فى وجه العمدة قائلة :

ـ ماذا تعنى باقتحامك غرفة نومى على هذا النحو ؟

فأجابها العمدة :

ـ لقد قتل جاسون جرانت . فما هى معلوماتك عن هذا الحادث ؟

فظهرت علامات الشماتة والتشفى على وجهها وقالت :

ـ قتل ؟! هذا خبر سار جدا ... هذا قضاء عادل حتى لا أكاد أصدق بوقوعه .

فقال العمدة :

ـ لا تظهرى سرورك فقد تنقلب الآية ضدك إذا لم تستطيعى

إثبات براءتك من ارتكاب الحادث .

فأشارت المرأة بيدها التى تشبه المخلب إلى وجه العمدة . ثم أزاحت لحافا رثا عن ساقها النحيفة المعروقة التى انتشر عليها لون أزرق من أثر صدعة جسيمة وقالت له :

ـ انظر لقد عجزت عن المشى منذ أن رفسنى جاسون بالأمس . ولم أستطع العودة إلى منزلى بعد ظهر الأمس إلا بعد جهد جهيد .

شعر مارتن بثورة نفسية وكاد يصيبه الغثيان من مجرد ما شاهده من آثار وحشية خاله جاسون جرانت ثم سأل المرأة قائلا :

ـ هل قابلت أحدا فى الطريق أثناء عودتك إلى منزلك ؟

فقطبت المرأة جبينها مفكرة ثم قالت :

ـ لقد تذكرت . لقد قابلت هيرام كارتر عندما كدت أصل إلى منزلى . وكانت تبدو عليه علامات الاهتياج وأمارات الضراوة . وإنى لأراهن على أنه هو الذى قتل جاسون . فلطالما هدده بذلك .

فقال العمدة :

ـ أظن أن المدعى العام سيطلب تقديم هيرام كارتر لمحكمة الجنايات إذا سمع ما تقولينه .

وأخذ مارتن يتصور حالة القلق والفزع التى ستستولى على سالى حينما يقدم والدها للمحاكمة أمام محكمة الجنايات وترى أدلة الاتهام تنهال عليه من كل ناحية ، وسأله العمدة قائلا :

- هل لك أن تصحبنى إلى مجلس الولاية ؟

فأجابه مارتن :

- كلا . فأنا أفضل الذهاب إلى مزرعة كارتر لإبلاغ هذا النبأ إلى سالى بدلا من أن تفاجأ به .

* * *

وصل مارتن إلى منزل آل كارتر ووجد الباب الخارجى مفتوحا فاقتحمه دون أن يقرعه . ولما دخل المطبخ لم يجد به أحدا ووجد الصمت مخيما عليه . وسمع صوت شخص يروح ويغدو فى مخزن الأطعمة فعلم أن سالى تخزن بعض الأطعمة وأخذ يهبط السلم فى سكون وهدوء . ولم يكد يصل إلى الدرجة الأخيرة حتى رأى منظرا وقف له جامدا بغير حراك ، كانت سالى منحنية على الأرض وقد أولته ظهرها وهى تحفر فى الأقذار المتراكمة حفرة عميقة .

واضطرب قلبه فزعا وخوفا حينما رأى الرزمة الملقاة على

الأرض بجوارها ، كانت رزمة من الأوراق المالية الجديدة فناداها بصوت حاول أن يجعله وديا وطبيعيا بقدر الإمكان . وقال لها :

ـ سالى ! ماذا تفعلين . ومن أين لك هذه النقود ؟

فنهضت واقفة والتفتت إليه بحركة مفاجئة وقد شحب وجهها وقالت له :

ـ مارتن ! لقد أفزعتنى .

وحاولت أن تضحك ضحكة مفتعلة ولكنها أخفقت . ثم قالت :

ـ لقد اقتصدت هذه النقود وظننت أن من الأحسن إخفاؤها فى هذا المكان .

ـ لا تحاولى يا سالى إخفاء الحقيقة عنى ، لقد جاء هذا المال من مزرعة خالى جاسون . وهى نقود سفكت الدماء من أجلها . وأنا أعلم أنك تحاولين حماية والدك . ولكن هذا يسبب لك متاعب لا قبل لك باحتمالها . ولو أن البوليس اكتشف هذه النقود هنا لقبض عليك بتهمة الاشتراك فى القتل .

فصاحت به سالى قائلة :

ـ إذا كانت هذه هى فكرتك عنى وعن أبى ، وإذا كان هذا

مقدار تقديرك لبراءة والدى وبراءتى فيحسن بك أن تنجو بنفسك وتبادر بالفرار فقد يراك البوليس هنا ويظنك مشتركا معنا فى الجريمة .

وبرزت قامة هيرام كارتر الضخمة من باب صومعة الحبوب وقال له بهدوء :

ـ إن ما تقوله سالى هو الصواب يا مارتن ، فالورطة ورطتى ولا أرى لك أن تندمج فيها . بل يجدر بك أن تنأى عنها بجانبك . وكذلك أنت يا سالى فلا شأن لك بهذه المشكلة ويحسن بك أن تنفضى يديك منها .

فقال له مارتن :

ـ وما شأن هذه النقود ؟

فأجابه هيرام :

ـ أنا لم أقتل جاسون ولا أنكر أنى كنت فى حالة اهتياج وثوران عندما غادرت المزرعة بالأمس قاصدا منزل جاسون جرانت آملا أن أقنعه بمد أمد القرض وأن يمهلنى حتى أستطيع سداد الدين . ولما وصلت إلى المنزل وجدت هذه الرزمة من النقود

الجديدة ملقاة على الأرض بجوار الباب الخارجى . فأغرانى شيطان الطمع بأن أستولى عليها وأفر هاربا . ولكن ضميرى استيقظ وأخذتها لكى أسلمها إلى جاسون . ولما دخلت حجرة المطبخ رأيت ذلك السكين المفزع مغمدا فى صدره فنسيت كل شىء عن النقود وعن الرهون والمزارع . وكانت الفكرة الوحيدة المستولية على ذهنى فى هذه اللحظ هى ضرورة الابتعاد عن هذا المكان بأسرع ما يمكن ولما وصلت إلى منزلى وجدت النقود لا تزال فى جيبى .

وقالت سالى بصوت متزن النبرات :

ـ نحن لم نزمع سرقة هذه النقود . فقد أردت إخفاءها حتى حلول الظلام فأعيدها إلى منزل جاسون جرانت كما كانت .

فقال مارتن :

ـ لا يمكنك أن تفعلى ذلك . فقد أقام العمدة شرطيا يحرس المزرعة .

فتنهد هيرام وقال : وهذا ما يزيد الطين بلة . ولست أدرى ماذا أصنع الآن .

فقال مارتن متئدا :

ـ إن الطريقة الوحيدة التى تستطيع اتباعها هى أن تبادر بالذهاب إلى المدعى العام وتخبره بالحقيقة كاملة .

فاحتجت سالى قائلة :

ـ كلا . فلو أنه فعل ذلك لما صدقه المدعى العام .

فقال مارتن :

ـ كلا . بل سيضطر إلى تصديقى إذا ظهر الجانى . ومهمتنا منذ هذه اللحظة هى أن نعمل على إظهار الحقيقة وإلقاء القبض على القاتل .

فقالت سالى :

ـ هذه مغامرة خطيرة ومجازفة لا داعى لها . سأحرق النقود وبذلك لا يجدون دليلا ضد والدى .

فقاطعها مارتن قائلا :

ـ لقد شهد شاهدان بأنهما رأيا والدك متجها إلى مزرعة جاسون قبيل وقت ارتكاب الجريمة . ولا يمكنك نقض هذه القرينة بإحراق النقود .

فأمسك هيرام بالنقود فى يده الضخمة وقال يخاطب مارتن :

ـ سواء أكانت نصيحتك خاطئة أم كانت صائبة فإننى سأعمل بها .

وخيم صمت عميق أثناء أن اتجه هيرام نحو السلم وبدأ يصعد الدرجات فى بطء وسكون ، ولما لمح مارتن وجه سالى الذى بدا شاحبا لفرط وجلها واضطرابها أحس باللوعة تعصر قلبه والحزن يملؤ فؤاده .

وناداها قائلا : سالى

ولكنها قاطعته صائحة :

ـ اخرج من هنا ، ولا ترنى وجهك بعد الآن .

* * *

حينما عاد مارتن إلى مزرعة خاله تهالك على أول مقعد استطاع الوصول إليه وتمنى لو أنه أغمض عينيه وفتحهما فوجد نفسه فى قلب الغابات والأحراش بعيدا عن هذه المشاكل العويصة الآمال المنهارة والأحلام التى بددتها يد القدر بقسوة .

أخذ يفكر فى الموضوع من جميع نواحيه . وصمم على إيجاد وسيلة لإنقاذ والد سالى من ورطته . وتمنى لو أنه استطاع أن

شاهدا يشهد فى مصلحته ، أو لو أنه وجد دليلا يدحض ادعاءات أنسون رينشو ونان بيترز .

واستفلت نظره المصباح بزجاجته الملونة بالهباب وشريطه الذى تراكمت عليه بقايا الاحتراق . آه لو كان هذا المصباح ينطق ويخبر بما حدث ..

وهنا طرأت فكرة مفاجئة على ذهن مارتن جعلته ينهض مسرعا ويقبل على المصباح يتفحصه بدقة وعناية . ثم خاطب نفسه قائلا :

ـ أجل . يمكن لهذا المصباح الأبكم الأصم أن ينطق ويتكلم ، بل ويمكنه أن يؤدى شهادته أمام المحكمة .

* * *

حينما تقدم مارتن إلى مقعد الشهود لكى يؤدى شهادته أمام المحلفين فى جلسة محكمة الجنايات التى عقدت النظر فى قضية مقتل جاسون جرانت ، كان أول ما فعله هو أن جال ببصره فى أنحاء القاعة باحثا عن سالى حتى وجدها جالسة فى أحد المقاعد وقد استقر بصرها على والدها الذى كان جالسا فى مقعد المتهمين كأنه حيوان سقط فى الشرك وكانت القصة المضطربة التى رواها

سببا فى تعزيز الاتهام . وكانت إجاباته المتناقضة على اسئلة المدعى داعيا لوضعه فى مركز حرج .

وأما ثالثة الأثافى فكانت شهادة أنسون رينشو والخادمة نان بيترز التى جاءت ضغثا على آماله .

وبعد أن أقسم مارتن اليمين القانونية سأله المدعى العام قائلا :

ـ لقد علمنا يا مستر مارتن أردن أن لديك معلومات ذات أهمية عظمى عن الجناية التى نحن بصددها . فهل لك أن تدلى بها أمام حضرات المحلفين ؟

فأجابه مارتن قائلا :

ـ لقد شهد أنسون رينشون بعد أن أقسم يمينا قانونية بأنه غادر المزرعة فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم وقوع الجريمة . وسأبرهن للمحكمة الآن على أن جاسون جرانت قد قتل فى نفس الوقت الذى غادر فيه أنسون المزرعة .

فقاطعه المدعى العام قائلا :

ـ أريد أن أحذر الشاهد من مغبة وقوعه تحت تهمة البلاغ الكاذب وشهادة الزور إذا أدلى للمحكمة بمعلومات لا يستطيع

إثبات صحتها .

فأجابه مارتن بهدوء :

ـ أنا جد عليم بهذه الحقيقة .

ثم أخذ يفض الرزمة التى أحضرها معه وأخرج منها المصباح الذى كان موضوعا على المائدة بجوار جثة جاسون جرانت ثم قال :

ـ لقد قرر كل من نان بيترز وأنسون رينشو قرارا مؤكدا أن هذا المصباح كان مملوءا ليلة ارتكاب الحادث وأن الخادمة ملأته حتى بلغ البترول حافته وفاض منها وانسكب على الأرض . وقد ظل المصباح مشتعلا إلى منتصف الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى .

وقد أجريت تجربة لمعرفة الوقت الذى يحترق فيه ملء خزان المصباح من البترول . فملأت المصباح وأشعلته ووجد أن المدة التى تلزم لاحتراق البترول تتجاوز اثنتى عشرة ساعة ونصف الساعة .

وبالمبادئ الأولية لعلم الحساب يمكن استنتاج أن المصباح قد أشعل حوالى الثالثة بعد ظهر يوم وقوع الجناية .

فقاطعه المدعى العام قائلا :

ـ ولكن ما الداعى لإشعال المصباح قبل حلول الظلام بساعتين ؟

فقال مارتن :

ـ هذا ما يستطيع أنسون رينشو تفسيره إذ إن دليل النفى الذى قدمه لإثبات براءته هو أنه غادر المزرعة حوالى الساعة الثالثة . وأنه كان على مبعدة ثلاثين كيلو مترا من مكان الحادث ساعة وقوعه . وأنه كان بالحانة قبل حلول الظلام بساعة .

فبلل أنسون رينشو شفتيه بلسانه قبل أن يقول :

ـ أنا لم أرتكب هذه الجناية .

فقاطعه مارتن قائلا :

ـ لقد كنت فى أشد الحاجة للنقود يا أنسون رينشو . فأنت مدمن على المقامرة . ولعلك مددت يدك إلى أموال الشركة التى تمثلها لكى تغطى بها خسائرك فى القمار .

ولقد استعرت نقودا من خالى جاسون جرانت . وكان يلح فى مطالبتك برد النقود إليه . ولما ذهبت إليه لتسديد ديونك وحدثت أمامك حادثة العراك الذى نشب بين خالى والخادمة من أجل سكب البترول على الأرض طرأت على ذهنك فكرة استرداد النقود التى

دفعتها بعد قتل جاسون جرانت وافتعال دليل النفى الذى يثبت وقوع الجريمة عقب مغادرتك المنزل . باشتعال المصباح وتركه مشتعلا عند ارتكاب الجريمة حتى يظن أن المجنى عليه ظل على قيد الحياة فى نفس الوقت الذى كنت أنت جالسا فيه مع أصدقائك فى الحانة .

فهم أنسون رينشو واقفا وهجم على مارتن يريد الفتك به . ولكنه عاد وتهالك على مقعده وقد بدت عليه علائم القنوط والانهيار وعذاب الضمير .

قال فى صوت خافت متقطع :

ـ لقد كنت فى حالة يأس شديد وأخطرتنى شركة قطع الأخشاب التى أمثلها بأنها سترسل لى مفتشا يراجع حساباتى . وأدركت أن هذه المراجعة ستؤدى إلى إلقائى فى غيابة السجن ولم أجد وسيلة للحصول على النقود إلا بالتخلص من جاسون جرانت ، وكانت خدعة إشعال المصباح بعد ارتكاب الجناية كافية للتدليل على وجودى على مسافة بعيدة من مكان الحادث ساعة وقوع الجريمة وإثبات براءتى من ارتكابها .

فقال المدعى العام :

ـ لقد وجدت النقود فى حوزة هيرام كارتر ، فهل كان شريكا لك ؟

فقال أنسون : كلا

ثم ساد الصمت برهة إلى أن قطعه أنسون بصوته المضطرب المتحشرج :

ـ إن إغماد سكين فى صدر إنسان حى من أفظع الأعمال التى يمكن الإقدام على ارتكابها ، ولقد أفزعتنى الظلال التى وقعت على الجثة حتى اضطررت للفرار وبعد أن اختفت النقود هرعت إلى العنف .

وكاد صوت أنسون أن يتحول إلى بكاء وعويل حينما استأنف الحديث قائلا :

ــ ولما وصلت إلى الباب الخارجى وحاولت فتحه وجدته مستعصيا ، وخيل لى أن جميع زبانية الجحيم قد احتشدت خلفى تريد الفتك بى ، وكدت أن أصاب بالخبل والجنون بتأثير الخوف والفزع فوضعت النقود فى جيبى ، وجذبت الباب بكل قوتى وبكلتا يدى حتى فتح فجأة وإذا بى أسقط منطرحا على الأرض نتيجة رد الفعل الذى نشأعن حركة الباب المفاجئة وكان فزعى قد

وصل إلى أقصى ما يمكن احتماله ، واندفعت إلى السيارة وقدتها وأنا ذاهل شارد اللب كالمخبول أو المعتوه ، ولما زايلنى الخوف والرعب وهدأت أعصابى واستعدت رباطة جأشى اكتشفت أن النقود قد فقدت منى ، ولكنى لم أجسر على العودة للبحث عنها .

وخيم فى أرجاء القاعة سكون مطبق وصمت عميق قطعهما مارتن حينما وجه حديثه إلى أنسون رينشو قائلا :

ـ ولعلك أوفدت عاملك سام سمول فى الصباح الباكر لليوم التالى لمقابلة جاسون جرانت حتى تضمن اكتشاف الجريمة قبل انطفاء المصباح ، وربما كانت خطتك قد نجحت نجاحا باهرا لو لم ألاحظ أن زجاجة المصباح ، وربما كانت ملوثة بآثار الدخان مما يدل على أن اللهب كان مرتفعا ، وهذا ما لا يمكن أن يفعله جاسون إذ كان يتحرى أن يكون شريط المصباح منخفضا ولهبه ضئيلا حتى يوفر البترول ويستهلك أقل ما يمكن استهلاكه منه ، واستنتجت من ذلك أن يدا أخرى غير يد خالى هى التى أشعلت المصباح ، ولما كانت الخادمة قد غادرت المنزل غاضبة دون أن تعنى حتى بمسح البترول الذى سكبته على الأرض فلا بد أن شخصا غير خالى وخادمته هو الذى أشعل المصباح .

فأجابه أنسون رينشو :

ـ لا جدوى من الإنكار ، فإن يد القدر هى التى دفعتك للتدخل فى هذا الموضوع والعدالة الإلهية هى التى أوحت إليك أن تكشف عن غوامض جنايتى حتى ألقى بجزاء ما قدمت يداى ، ليغفر الله لى فما أجرمت حبا فى الجريمة .

ولتسامحنى أنت يا مارتن على ما سببت لك من عناء .

* * *

حينما غادر مارتن أردن قاعة الجلسة اندفعت سالى إليه واستوقفته وقالت :

ـ هلا عفوت عنى يا مارتن واغتفرت لى الألفاظ التى بدرت منى عفوا من جراء لوعتى ووجلى .

فأخذ مارتن يديها بين يديه وقال لها :

ـ اسدلى على هذه المسألة ستار النسيان فإننى لا أستطيع أن أدع مسز مارتن أردن للمستقبل يشغل بالها ويصيب رأسها الجميل بالصداع من أجل أمر تافه كهذا الذى تتحدثين عنه .

راندول كريل

الضمير المهنى

الضمير المهنى

استلقى رئيس البوليس فى مقعده الجلدى ووضع قدميه على مكتبه الأكاجو وألقى هذا الأمر ' هيا حدثنى أيها الملازم عن قضية مورجان ' .

وتردد الملازم لحظة قبل أن يقول :

ـ تنطوى هذه القضية على عدد من المصادفات الغريبة يا حضرة الرئيس .

ـ مصادفات .. تقول ؟!

ـ وهذا ما جعلنى أضع افتراضات .

ـ وضعت افتراضات ؟!

قالها رئيس البوليس وقد دهمت حاجبيه تقطيبة تسبق عاصفة الغضب التى عكرت وجهه وتابع :

ـ افتراضات ؟! ماذا تحسب نفسك أيها الملازم ؟ أنت شرطى نعم

أم لا ؟ أسهل بالطبع أن تظل جالسا وراء مكتبك تضع الافتراضات من أن تجشم نفسك عناء الذهاب للبحث عن الوقائع حيث ينتظر أن تجد مثل هذه الوقائع أليس صحيحا ؟

لم يكن الملازم رقيق الجلد أو أنه بعد هذه السنوات التى قضاها تحت أمرة الرئيس فقد حساسية جلده ومع ذلك فقد رأى أن يتواضع أمام ذكاء متفوق على ذكائه . وسأل :

ـ هل تسمح لى يا حضرة الرئسي بإيضاح وجهة نظرى ؟ الواقع أنى بحاجة ملحة لمن يوجهنى فى هذه القضية ولشد ما أود أن تقرر لى الخطة التى ينبغى لى اتباعها .

رق الرئيس فأومأ برأسه إيماءة الفاهم وأمر :

ـ تابع أيها الملازم .

ـ قبل كل شىء يا حضرة الرئيس .. إن مورجان قاطع طرق .

ـ قاطع طرق ولكنى كنت أعتقد أنه ..

ـ قصدت أنه كان قاطع طرق إنى ما أزال أضع الافتراضات ورجعت إلى السجل العدلى لسام يا حضرة الرئيس فوجدت أن صاحبنا قد حكم بجريمة السرقة عام ١٠٤٦ ولكن سلوكه الحسن

أفاده فى تخفيض محكوميته بعد سنتين ونصف السنة ويبدو أن سام كان سجينا مثاليا حتى أن حراسه أسفوا غاية الأسف لذهابه ، بالاختصار أطلق سراحه فى نهاية عام ١٩١٦ ولم يلق عليه القبض بعد ذلك أبدا ، هذه هى الواقعة رقم واحد ، أما الواقعة رقم اثنان فهى أن سام لم يكن يستطيع تقديم إيضاح للسنوات العشر التى عاشها إلا بشكل شديد الغموض قام بأعمال صغيرة هنا وهناك بالطبع إلا أن هذه الأعمال لم تكن فى الغالب سوى تغطية ، أما غرامه الأول والأكبر فكان اللصوصية ، إن سام لص محترف .

- وهل هذه فرضية أخرى أيها الملازم ؟

- أجل يا حضرة الرئيس . فرضية مبنية على التجربة التى أكسبتنى إياها الاحتكاك مع جميع أصناف المجرمين . ولكن سام ليس مجرما من الطراز الذى تلتقى به كل يوم ، إنه واحد من أولئك الذين يمكن أن تطلق عليهم : جماعة المدرسة القديمة ، وهو رجل قصير القامة ، سريع الحركة نشيطها ، إنه أشبه بالقط وكالقط يستطيع التسلل إلى أى مكان ، ويبدو لطيفا مهذبا ، ولا تظهر له نقيصة أبدا ، وهو لا يسرق ليشترى المخدرات أو لينفق على العاهرات من النساء . مطلقا ، وهو لص لأنه يملك موهبة طبيعية

للصوصية ، وهذا ما يحبه فوق كل شيء ، وهو لا يعتبر نفسه مجرما ، ثم إنه لص ظريف ، نوع من اللصوص الجنتلمان ـ إذا صح التعبير ـ وهذا النوع من اللصوص هو فى طريق الانقراض لسوء الحظ .

وتنهد رئيس البوليس بحنين :

ـ لسوء الحظ .

وشجع هذا القول الملازم فتابع :

ـ والآن يا حضرة الرئيس سوف أضع فرضيات جديدة مع استمرارى فى سرد قصة سام لك . وإذا شئت فصبرت على قليلا فسأعرض عليك بعض الوقائع وبعض المصادفات ، أما فى الوقت الراهن فعلى أن أكتفى بالفرضيات ، فى اعتقادى أن لسام شريكا ذا ماض معروف فى اللصوصية هو سيدنى تيبر .

ـ تيبر .. تقول .. ؟

وقاطعه الملازم بحماسة :

ـ أرى يا حضرة الرئيس أنك بدأت تستنتج خلاصات لنفسك ، وأرجو أن تسمح لى بالاستمرار ، اعترف أننى لا أملك أى دليل

وأنـى لـن أسـتطيع الحصـول علـى أى دليـل يثبت أن سـام مورجـان وسيدنى تيبر كانا شريكين خلال السنوات العشر الفائتة ولذا فأنـا أكتفى بافتراض ذلك ، وكما ترى يا حضرة الرئيس فإن مواهبهما يكمل بعضها بعضا إنهما يشكلان عصابة كاملة ، سام بارع جدا فى التسلل إلى بيوت النـاس وسيدنى يجيد اغتصاب الأبواب كما يـتقن توظيـف الأمـوال المسـروقة ، سـام هـو الفنـان وسـيدنى رجـل الأعمال هل توافق يا حضرة الرئيس علـى أنهمـا يشـكلان عصـابة ممتازة .

ـ أوه . بالتأكيد .. ولكن شريكين خلال السنوات العشر النائية .

ـ والآن أريـد أن أذكرك بقضـية أخرى يـا سـيدى ، هـى قضـية جارمان هل تذكر جيدا ماكس جارمان ؟ اسمح لى أن أصف لك ما استطاع أن يصير عليه ماكس جارمان هذا ففى تلك السنة ١٩٥٨ كان صاحبنا سام مورجان بائعا فى محل للأحذية إلا أن سام ـ وهذا ما تأكدت منه ـ لم يكن شديد الاهتمام بهذه المهنة فهو لا يحضر إلى المخزن إلا كل يومين مرة وعندما يكون موجودا لا يبيع الكـثير مـن الأحذيـة ، وقـد قـال لى صـاحب المحـل إنـه احتفظـه كمسـتخدم لا لشـىء إلا لأن سـام كـان يبـدو فتـى نشـيطا ، وفـى

الأغلب أن هذا العمل لم يكن سوى تغطية ، ألا ترى ذلك أيها الرئيس ؟

ـ أجل .. ربما ..

ـ حسنا جدا ، ولنفرض حتى الآن أن سام وسيدنى كانا يشتغلان معا فى عام ١٩٥٨ ، إن قضية جارمان هى بالضبط من النوع الذى يتطلب موهبتهما سويا فبيت جارمان كان مليئا بالفراء والحلى لأنه كان يحب أن يدلل زوجته ليونا وعلى العكس لم يكن فيه أموال نقدية كثيرة ، وكانت الأبواب مزودة بأقفال متينة ولكن هذا مما لا أهمية له فى نظر سام ، والآن لنتوافق أيها الرئيس على أن سام وسيدنى قد وجد معا فى بيت مورجان ذات مساء من عام ١٩٥٨ ..

أنزل الرئيس قدميه عن المكتب واستوى جالسا فى مقعده ، وعاد التقطيب إلى حاجبيه ولاحظ :

ـ إنك تبنى النظريات أيها الملازم .

ولكن هذا الأخير لم يكن ينوى التوقف عن عرضه فلجأ إلى الإطراء :

ـ كلا يا سيدى الرئيس ، إنما أقوم بعرض عدد من الوقائع والملابسات والاستنتاجات عليك ولك أنت أخيرا أن تتكرم باستخلاص النتائج .

نظر الرئيس إلى مرؤوسه لحظة فراقه منه هذا الخضوع ، فعاد إلى مجلسه السابق المريح قائلا :

ـ تابع أيها الملازم .

ـ لنفترض إذن أن سام وسيدنى هما اللذان قاما بالضربة ، لا نستطيع أن نكون متأكدين بالضبط ولكننا نفترض ذلك ، وعلى الأغلب أن يكون سام هو الذى دخل على جارمان ، وربما لا يدخل سيدنى إطلاقا ، إن الأحداث سارت بسرية لم تترك له فسحة من الوقت ، فى كل حال لاقى سام مفاجأة غير سارة لدى دخوله البيت وهذا ما استوثقت منه بفضل شهادة ليونا جارمان ، ففى هذه الليلة حصل شجار عاصف بين ليونا وزوجها قرر ماكس فى نهايته أن يقضى ليلته على كنبة فى الصالون ، تصور يا سيدى الرئيس لصا يدخل بيتا ليجد صاحبه نائما على كنبة فى الصالون؟ وسام لا ينوى الاشتباك مع أحد ، كل ما كان يبتغيه هو أن يدخل البيت بهدوء ويخرج منه بهدوء ، ولكن جارمان كان

هناك على الكنبة ويستيقظ وربما لم يكن قد غفا بعد ، ففى كل حال سمع سام وهو يدخل ، وكان عنده مسدس . (تذكر يا سيدى الرئيس ذلك الذى لم يستطع أحد التأكد من أنه يخص ماكس) ويتناول المسدس ويطلق على سام فى الظلام ولكنه يخطئه .

ويتلو ذلك اشتباك . سام نحيف وسريع الحركة ، وماكس ثقيل وبطىء ، ولم يكن سام ينوى قتل أحد ، كل ما كان يبتغيه هو الخروج ولكن ماكس الأحمق لم يشأ التخلى عن اللص فوقع بينهما صراع عنيف قتل فيه ماكس بمسدسه نفسه ، وما كان سام يريد غير الدفاع عن نفسه وهكذا قتل ماكس فى دفاع مشروع .

وعلق رئيس البوليس بلهجة القانونى :

- إن جريمة قتل يرتكبها لص فى المكان الذى يدخله للسطو لا تعتبر أبدا عملية دفاع مشروع عن النفس ، بل جناية قتل متعمدة .

- صحيح يا سيدى الرئيس ، هذا مفهوم ، ولكن ليس لنا أن نلوم سام لأنه أطلق النار على خصم كان يريد إطلاق النار عليه .

- هذا إذا افترضنا أن سام هو الذى كان موجودا فى بيت جارمان تلك الليلة .

ـ بالتأكيد يا حضرة الرئيس . نحن نضع الفرضيات ، والآن اسمح لى أن أكمل ، كما تعلم قضية جارمان لم تحل أبدا ، وأنت تتذكر بالتأكيد أيضا الضجة التىأحدثتها فى الصحافة التى نشرت مقالات مؤثرة وصفت فيها الرجل التاعس الذى مات دفاعا عن بيته وأسرته ، وتحدثت عن أرملته المسكينة واليتيمين اللذين تركهما وراءه ، وها أنا أعود إلى فرضياتى ، فهل يكون مدهشا أن يكون سام قد ندم بعد أن قرأ كل ذلك فى الصحف ، تذكر يا سيدى أن الأمر يتعلق بلص من المدرسة القديمة برجل ليس خلوا من الضمير .

ـ وإذا وافقنا على أن سام هو الذى قتل جارمان .

ـ علينا أن نوافق على ذلك أيها الرئيس بكل تأكيد .

كان الرئيس فى هذه اللحظة عالق الأنظار بسقف الغرفة يتأمله وكأنه ينتظر أول هفوة من مرؤوسه ليضبطه بها ، واكتفى بالقول :

ـ إنى بانتظار نهاية حكايتك التى تجعل السامع ينام واقفا أيها الملازم .

حرض الملازم بريقه خمسة عشر عاما فى خدمة البوليس علمته أشياء كثيرة ، وإذا كان سام مورجان يملك ضميرا فهو أيضا له مثل

هذا الضمير ، وعليه إذن أن يتابع العمل الذى بدأه حتى ولو أراد أن يسكت الآن ، فلن يسمح له الرئيس بذلك خمسة عشر عاما فى البوليس ..

قال :

ـ حسنا يا سيدى الرئيس . أما أقوال تاجر الأحذية فلم يكن من السهل التأكد منها لأنه لم يكن يعرف أى شىء عن أخبار سام مورجان .

إلا أنه يتذكر على وجه التقريب أن سام فى الفترة التى قتل فيها ماكس تغيب عن المحل أسبوعين أو ثلاثة . فماذا استطاع سام أن يفعل خلال أسبوعين أو ثلاثة ؟ ربما ـ أقول ربما ـ كان قد وقع تحت تأثير يقظة ضمير ؟ هو رجل دقيق لم يؤذ فى حياته ذبابة وها هو الآن يجد نفسه فجأة قد صار قاتلا . ثم إن هذه القصص التى تنشرها الصحف عن القتيل وأرملته واليتيمين تعذبه عذابا أليما .

وسام صاحب القلب الرقيق يوشك أن يجن كلما فكر أن ثمة امرأة رقيقة حرمت من زوجها وطفلين مسكينين انتزع منهما أبوهما .. فما الذى يستطيع أن يفعله لمساعدتهم ؟ إن اعترافه بجريمته لا يفيدهم أبدا " شيئا واحدا " (قالها سام لنفسه) وهذا

الشيء هو أن يحل محل ماكس جارمان عند أسرته .

وتطلع الرئيس إلى الملازم وقال بصوت لا جرس فيه :

ـ لقد تزوج سام مورجان أرملة ماكس جارمان . هذا مانع منه جميعا .

ـ أجل أيها الرئيس . ولقد قمت بتحقيق صغير حول هذه الواقعة ولكن دون أن أكشف مواقعى ألقيت أسئلة عابرة على سام وزوجته السيدة جارمان سابقا . شئت أن أعلم كيف التقيا ولماذا تزوجا . لم أحصل على شيء منهما ، ولكن جمعت المعلومات التالية .

ظهر سام لأول مرة فى حياة ليونا جارمان بعد حوالى الشهر من موت زوجها . وقد روى لها دون تفاصيل واسعة أنه عرف زوجها فى السابق ، وأنه يكون سعيدا لو استطاع أن يقدم إليها أية مساعدة ، أما الأطفال فقد مال إليهم منذ البداية ، الأمر الذى أعطاه عذرا للعودة ثانية ، وفى غضون الأشهر التالية قام سام بزيارات متواصلة للأرملة فما الذى كان بعده ؟ هل أراد منذ البداية أن يتزوج ليونا أم أنه كان ينوى مساعدتها بإخلاص ثم أدى به ذلك إلى الزواج ؟ مهما يكن من أمر ففى نهاية فترة الحداد

أصبحت أرملة جيرمان السيدة سام مورجان ، فهل كان هذا التدبير حقا من أرض سام ؟ الحقيقة أنى لا أعرف الكثير عن هذا لأنه هو يمتنع عن التوسع فى هذا الموضوع ، والسيدة مورجان الجديدة ليست فى مطلع الشباب وهى بعيدة عن أن تكون آية من آيات الجمال ، ولكن ربما كان سام سعيدا لشعوره بأنه قام بواجبه وأدى دينه للمجتمع .

فعاد الرئيس يقول :

- هذا إذا سلمنا بالفرضية القائلة إن سام هو قاتل ماكس .

- بالطبع .. ولكن تبقى نقطة أخرى بحاجة إلى توضيح ، نحن لا نعرف ، ولا نملك أية وسيلة لنعرف ، ما إذا كان سام قد عرف ماكس قبل ذلك فعلا ، كما أكد ذلك على مسامع ..... وإذا صدق فكيف تعرف عليه ؟ وليس أمامنا غير كلام سام لأن ماكس قد مات ، لماذا بادر سام فورا بالتردد على بيت ماكس والعطف على اليتيمين كما لو كان قد نزل على ذلك البيت من السماء ، تلك نقطة غريبة أليس كذلك يا سيدى الرئيس ؟

- هيه .. هيه ..

- والآن .. هاك آخر دفعة من الألغاز ، ماذا حل بسيدنى تيبر

وماذا فعل خلال كل هذا الوقت .

- هذا إذا افترضنا أن سيدنى تيبر كان شريك سام .

- بالضبط .

- هل راجعت أدلتنا ؟ هل وجدت أى دليل على أن سيدنى وسام كانا شريكان بل إنهما كانا متعارفان على الأقل ؟

سعل الملازم بارتباك . تلك كانت نقطة الضعف فى القضية وهو يعرفها . ولكن حتى لو أراد لكان عاجزا عن الكذب .

وأجاب :

- لقد قمت بأبحاث دقيقة حول هذه النقطة يا سيدى الرئيس ولكن عبثا .

- ومع ذلك فإن باستطاعتنا أن نفكر ..

- أجل يا سيدى باستطاعتنا أن نفكر أن لا بد من وجود شخص يعرف بشراكة سام وسيدنى إن كانا حقا شريكين . هذا إن يكن سام فى سيدنى من البراعة والدقة وهذا ما أعتقده . وهذا ما يوضح ، من جهة ثانية ، كيف إنهما لم يضبطا أبدا فى بعد . كانا داهيتين وقد عرفا كيف يفيدان من أخطاء شبابهما .

ـ أوه .. أوه ..

ـ لنتحدث إذن عن سيدى الآن ، كان مع سام ليلة اضطر هذا الأخير إلى إطلاق النار على ماكس ، إذن فهو مسئول عن الجريمة أيضا ، ولكنه لا يملك ضمير سام ، وهو على الأغلب غير متسابق بالندم على اعتباره ليس هو الذى شد على الزناد فى جميع الأحوال ، نراه يتضاءل فلا نسمع أحدا يتكلم عنه وربما كانت شراكته مع سام قد حلت نهائيا ، ولكن سيدنى يقرأ الصحف هو الآخر كأى لص يحترم نفسه ، ولكن القصص العاطفية عن الأرملة واليتيمين لا تحرك عواطفه أبدا ، ومع ذلك فلقد لفت أنظاره بعد سنة خبر زواج سام بليونا جارمان ، إنهما اسمان معروفان لديه ولكنهما لشخصين لم يكن يتوقع لهما أبدا أن يتزوجا ، وجميع الدلائل تشير إلى أن ليونا تجهل حقيقة شخصية سام بينما يعرف سام كل شىء عن ليونا ، ويتساءل سام لماذا يتزوج سيدنى من أرملة الرجل الذى قتله ؟ وعلى هذا السؤال يجد جوابا مختلفا كل الاختلاف عن ذاك الذى وجده سام .

ـ أى جواب ؟

ـ حسنا يا سيدى الرئيس . لقد اعتبر الدوافع التى حدت بسام

إلى الزواج بالأرملة غير إنسانية ويتابع سيدنى بحثه وتحققه كما فعل ليكشف كما اكتشفت أن ماكس جرمان كان قد وقع بوليصة تأمين على الحياة بمبلغ مائة ألف دولار . وبدا هذا المبلغ فى عينى سام لطيفا جدا لدرجة جعلته يغمض عينيه عن واقع ليونا التى ليست حسناء ولا شابة ويتناسى أن القاتل لا ينبغى له أن يتزوج بأرملة الرجل الذى قتله .

وصلب رئيس البوليس يديه كأنه يصلى وسأل :

ـ إذن فقد خطر لسيدنى أن يقوم بعملية ابتزاز .

ـ بالضبط أيها الرئيس .

قالها الملازم بحماسة ، فهو يعرف أن الرئيس بحاجة لتشجيع على فرضياته .

ـ وبعد ؟

ـ وبعد اتصل سيدنى بصديقه القديم . وبصراحة مفرطة ألقى عليه السؤال الذى كان يراوده ، ولما تلقى جواب سام انطلق يضحك .

ـ الضمير ؟ سيدنى لا يعرف له شكلا ! وسيدنى رجل خبيث

وهو فى الوقت نفسه داهية ، وطلب من سام حصته من الغنيمة ، وغضب سام ولكنه أدرك بسرعة أن سيدنى قد يسبب له متاعب كثيرة . فأجابه " حسنا " . أنت تعتقد أنى قد تزوجت ليونا من أجل مالها . فإذا صح هذا فكيف أن تتصور إعطاؤك نصيبك ؟ حتى لو أنى أنا الذى يشرف على ثروة زوجتى فكيف أشرح لها تقديمى إليك رزمة من الأوراق النقدية كهدية ؟ وأنا لا أستطيع فى أية حال أن أروى لها الحقيقة ؟ وعند هذه النقطة وافق سيدنى باعتباره من الأشخاص القادرين على فهم المواقف . والحقيقة كان قد فكر هو نفسه فى هذه الصعوبة .

وقال لسام :

ـ أنت لا تستطيع أن تفسر لزوجتك سبب إعطائى مبلغا من المال صحيح ، ولكنك تستطيع أن تدع مبلغا ما فى مكان ما بالبيت ذات ليلة لك وأن نثق بأنه لن يكون صعبا على الدخول إلى البيت .

ولاحظ رئيس البوليس وهو يمط شفتيه :

ـ ليست فكرة سيئة تلك التى خطرت لسيدنى .. إذا اعتبرنا أن ...

ـ بالتأكيد يا سيدى الرئيس فلنعتبر الآن القضية رتبت والموعد حدد ورجع سيدنى إلى مهنته القديمة فتسلل إلى بيت جارمان الذى أصبح بيت سام مورجان . وتكررت القصة إلى حد ما ، ولكنها هذه انتهت نهاية مختلفة كل الاختلاف ، لم يدر نقاش بين سام وليونا ومع ذلك فقد يقبع ينتظر فى الصالون تحت ضج الظلام ، وكان معه مسدس تماما كما كان مع ماكس ، ولكنه كان أخف حركة من ماكس وأدق تسديدا ، ولما كان يعلم أن عملية الابتزاز الأولى قلما تكون الأخيرة فقد صمم على قتل سيدنى فأرداه بالطلقة الأولى التى استقرت فى قلبه .

أنزل الرئيس قدميه عن المكتب وانتصب جالسا باتزان ، وقال :

ـ هذا بالضبط ما جرى . لقد أطلق سام مورجان النار على مجهول تسلل إلى بيته بشكل غير شرعى . وقد تصرف بالضبط ضمن حقه فى الدفاع عن ملكه بل كان مدافعا عن نفسه دفاعا مشروعا .

ـ بالضبط أيها الرئيس وليس بوسعنا أن نمس شعرة من رأس سام مادامت حكاية الدفاع المشروع قائمة .

وغمس الرئيس نظره فى عينى مرؤوسه قبل أن يسأل :

ـ حسنا . هل هى قائمة . نعم أم لا ؟

ـ فى الوهلة الأولى نعم يا سيدى الرئيس ، ولكن هناك تلك المصادفات التى حدثتك عنها . السجل العدلى لسام الذى يحتوى على جريمة سرقة واحدة ، وسجله المهنى الغريب بعد خروجه من السجن ، والواقعة الفريدة فى أن يتزوج لص سابق بأرملة رجل قتله لص ، وأخيرا حادثتا السرقة اللتان وقعتا فى بيت واحد خلال أشهر قلائل وانتهت كل منهما بمصرع شخص .

ـ دعنا أيها الملازم ، إنك تقول حماقات ! ليس يمكنك توقيت سام مورحان والحكم عليه بالاستناد إلى أدلة غير موجودة .

ـ كلا يا سيدى الرئيس وهذا ما أعرفه حق المعرفة .

نهض رئيس البوليس قائلا :

ـ إذن ما هدف كل هذه القصة ؟ وماذا تتوقع منى بحق الشيطان ؟

وأجاب الملازم بصوت كله تواضع :

ـ أتوقع منك يا سيدى الرئيس أن تشير على بما ينبغى أن أفعل

لأستطيع البحث عن أدلة أخرى ، جمع معلومات جديدة ، بوسعى أيضا استجواب سام بقسوة وإحراج زوجته بأسئلة شخصية لم يتح لى حتى الآن أن أطرحها عليها .

ـ ليست من شأن البوليس مضايقة مواطنة شريفة مثل ليونا مورجان أيها الملازم .

ـ إذن ماذا ينبغى أن أفعل أيها الرئيس ؟ هل اعتبر القضية بحكم المنتهية أو أعود إلى وضع افتراضات جديدة ؟

هذا السؤال كان النقطة التى طفح بها كيل الرئيس فانفجرت غضبته المكبوتة وإذا لم يقدم على طرد الملازم أو إنزال رتبته فلأن الفكرة لم تخطر له فقط .

وصاح به :

ـ لن تضع فرضيات جديدة أيها الملازم . عليك أن تكف عن أن تلعب دور التحرى فى الصالونات لتصبح بوليسيا حقيقيا بهذا الاسم ، بوسعك أن تصنف قضية مورجان .

أما جواب الملازم فقد اقتصر على هاتين الكلمتين اللتين طالما رددهما .

ـ أمرك يا سيدى الرئيس .

وبعد أن أصغى إلى رئيسه وهو يلومه لوما شديدا ويقرعه تقريعا عنيفا خلال عشر دقائق متواصلة خرج فرحا ليستنشق بعض الهواء الطرى كان يحس أنه على خير ما يرام ، كل ما رواه لرئيس البوليس كان صحيحا ما عدا واقعة أو اثنتين وكان هو قانعا بذلك كل الاقتناع ، ولكنه تلقى أمرا ، قضية سام يجب أن تصنف ، وهذا اللص الشجاع لن يجد من يزعجه بعد الآن .

وأحس الملازم كما أحس سام من قبله بأن ضميره على أتم ارتياح .

دوجلاس فار

بيت القاضي

بيت القاضى

عندما اقترب امتحان مالكولم ، اعتزم أن يختلى بنفسه فى مكان ما ليستذكر ، وكان يخشى مغريات الشواطىء ، كما يخشى عزلة الريف ، ولذلك اعتزم أن يلجأ إلى مدينة صغيرة توافق غرضه ، وكان يخشى إذا استشاره أصدقاؤه أن يقترح كل بلدة فيختلط الأمر عليه ويحتار ، ولذا حزم أمتعته ، واشترى جدول مواعيد القطارات وقد صح عزمه على أن يذهب إلى أول مدينة يقع عليها إصبعه من الخريطة ولو لم يعرف فيها أحدا .

وقد كان ، وانتهى بعد ثلاث ساعات إلى بلدة " بنتشرش " حيث أخذ يبحث عن فندق يقضى فيه ليلته ، وكانت بلدة صغيرة يعقد فيها سوق كل ثلاثة أسابيع وهى لا تغص بالناس إلا فى تلك الأوقات ، ولما أصبح فيها شرع يبحث عن منزل هادىء يستأجره ، فسرعان ما عثر على منزل منعزل يوافق غرضه كل الموافقة ، وكان منزلا عتيقا متين البناء على الطراز اليعقوبى نوافذه صغيرة ومرتفعة ، يحف به سور صخرى عال ، فكأنه وهو

بهذا الوصف حصن لا بيت ، ولكن ذلك لم يمنع مالكولم من أن يجد فيه طلبه ، وسر به سرورا عظيما إذ علم أنه خال وأنه معروض للإيجار .

ومن مكتب البريد استطاع مالكولم أن يستدل على الوكيل القائم بشئون هذا المنزل ، ويدعى مستر " كرانفورد " وهو محام كهل باش الوجه ما كاد يعرف غرضه حتى قال له :

ـ لو كنت مكان أصحاب هذا المنزل لما ترددت فى تأجيره مجانا مدة من الزمن ، وذلك ليعتاد الأهالى رؤيته آهلا وإنه ظل خاليا منذ زمن طويل حتى ذاعت الأقاويل فى شأنه وصار أمره متوقفا على شخص مثقف مثلك لا يأبه بما يذاع عنه فيقدم على سكناه ويدفع عنه إشاعات السوء .

فلم يعبأ مالكولم بقول الرجل ولم يلبث أن دفع له أجر ثلاثة أشهر مقدما وأخذ منه مفاتيح المنزل وعنوان المرأة التى يمكنها أن تديره له ، ثم وصل إلى مسز وتهام صاحبة الفندق الذى كان به ليأخذ حقيبته فلم تكد تسمع بما نوى حتى بدت عليها الدهشة وقالت :

ـ أتقول إنك استأجرت بيت القاضى ؟

وامتقع وجهها إذ تكلمت ، فوصف لها مكان المنزل وقال إنه لا يعرف اسمه فقالت :

- هو بيت القاضى ، هو بيت القاضى بعينه !

فسألها عما يعيب المنزل ولماذا يسمى هكذا ؟

فقالت :

- إنه كان يقطن فيه من نحو مائة عام قاض رهيب عرف بشدة أحكامه وقسوته على المتهمين ، وهذا منشأ التسمية ، أما ماذا يشين المنزل فهى لا تعرف بالضبط ولكن هناك إجماعا عاما فى البلدة على أن فى المنزل " شيئا " وأنها ترفض أن تقيم فيه ساعة لقاء ما فى البنك أسوة من قال .

قالت :

- يؤسفنى يا سيدى أن يقيم فى هذا المنزل شاب مثلك ، فلو كنت ولدى لما تركتك تبيت فيه ليلة واحدة ولو اضطررت أنا إلى الذهاب إليه وقرع ناقوس الإنذار الكبير فوق سطحه !

وكانت المرأة تتكلم بحماسة تامة حتى تأثر مالكولم وقال لها مهدئا :

ـ لا تخافى على من شىء يا مسز وتهام ، فإن من كان يستعد لامتحان مثل امتحانى لا يجد وقتا يفكر فيه فى تلك " الأشياء " التى تسكن فى المنزل وأنا عندى من غوامض العلوم ما يستغرق وقتى ويشغل فكرى .

ثم إنه مضى يلتمس المرأة التى سوف تدير له منزله ، فلما اتفق معها وصحبها إلى بيت القاضى وجد هناك مسز وتهام وبعض الصبية قد سبقوه بالمؤن التى كان أوصاهم بإحضارها ، وكذلك كان مع المرأة سرير حرصت على إحضاره حتى لا ينام الشاب على سرير لم يستعمل أو ينظف منذ أكثر من خمسين عاما ، كما أنها كانت مشتاقة إلى رؤية المنزل الذى لم يزل يرهبها ذلك " الشىء " الذى يسكنه .

وبعد فحص المنزل رأى مالكولم على أن يكون نومه فى غرفة المائدة الكبيرة التى تتسع لكل حاجياته ، فشرعت مسز وتهام وإحدى الخادمات تهيئان المكان ، فلما انتهتا قالت له وهى تهم بالذهاب :

ـ إن هذه الغرفة لا تخلو من تيار هوائى فأنصحك بأن تجعل حول سريرك يا سيدى ستارا محيطا به يحجب الهواء عنه ، وإن

كنت أنا لا أحب أن أنام وسط هذه الستائر و" الأشياء " هنا تطل من فوقها ومن بين طياتها !

ولكن الخادمة العجوز مسز ويبستر رفعت رأسها فى كبرياء وقالت :

- إن كل " الأشياء " التى فى طول البلاد وعرضها مجتمعة لا ترهبنى يا سيدى ! وليس بالمنزل غير الفئران والصراصير وأصوات الأبواب العتيقة وهى التى تلقى الرعب فى قلوب الجبناء ! فما العفاريت إلا الفئران وما الفئران إلا العفاريت .

فأثنى مالكولم على شجاعتها وتعقلها ورباطة جأشها .

ثم أخذت هى تقوم بالتنظيف اللازم للمنزل ، فلما كان العصر خرج مالكولم متأبطا بعض كتبه للتنزه ، ولم يعد إلا وقد هبط الليل ، فوجد الغرفة نظيفة مرتبة والنار تشتعل فى الموقد العتيق ، والمائدة قد أعدت .

وبعد أن انتهى من عشائه أخرج كتبه من حقيبته ووضع بعض الأخشاب فى الموقد ، ثم انكب على القراءة فلم يرفع رأسه حتى كانت الساعة الحادية عشرة ، وعند ذلك نهض ليستريح وهيأ لنفسه فنجانا من الشاى ، وكانت النار مشتعلة فى بهجة يتطاير الشرر

منها وهى تلقى على الجدران العتيقة أشباحا تتراقص .. وأخذ يرتشف الشاى الساخن فى لذة وارتياح إلى هذه العزلة ، ولم يلبث أن انتبه لأول مرة إلى الأصوات العجيبة التى تحدثها الفئران . قال فى نفسه :

ـ عجبا . أكانت تحدث كل هذه الجلبة وأنا أقرأ دون أن ألحظها ؟

فلما ازدادت الجلبة عرف أنها لابد كانت صامتة بسبب استغرابها لوجوده ، فلما رأته لا يذهب اجترأت على السعى كسالف عهدها ، وما كان أجرأ تلك الفئران ، وما أغرب ما تحدث من صوت ، فإنها تضطرب فى كل ركن من الغرفة فى الأرض والسقف والجدران متسابقة متقاتلة صاخبة ، فتذكر عند ذلك قول مسز ويبستر " ما العفاريت إلا الفئران وما الفئران إلا العفاريت " وكان الشاى قد أحدث به أثره فأخذ يستعد لاستئناف القراءة من جديد ، ورأى قبل ذلك أن يتمشى قليلا فى الغرفة ، فقام والمصباح فى يده يدور فى الغرفة وهو يستغرب إهمال هذا المنزل الجميل طوال هذه المدة ، فالجدران عليها نقوش بديعة ، وأخشاب النوافذ والأبواب من الأنواع الفاخرة ، وهنا وهناك صور عتيقة يغطيها التراب حتى لا تكاد تبين ، فما ينظر فى شق من تلك الشقوق

المنتشرة فى كل مكان حتى يبصر رأس فأر يطل عليه بعينيه اللامعتين لا يلبث أن يختفى بعد صرخة صغيرة ، وكان أكثر ما أدهشه ذلك الحبل الطويل المتصل بجرس الإنذار الكبير فوق السطح ، وهو يتدلى بجانب الموقد .

ثم إنه جلس يحتسى قدحا آخر قبل أن يعاود القراءة ، ثم انتقل إلى الناحية الأخرى من المائدة جاعلا الموقد عن يساره وأكب على القراءة ، وكانت ضجة الفئران تشغله أول الأمر ولكنه ألفها بعد حين واستغرق فى العمل .

ثم إنه انتبه فجأة وبيده معضلة لم ينته من حلها قبيل الفجر وكانت حركة الفئران قد خمدت ، بل لقد خيل إليه أنها ما سكنت إلا أخيرا ، وأن الذى نبهه هو سكونها المفاجىء ، وكانت النار قد بدأت تخبو ولكن ما زال لها وهج أحمر عميق ، ثم حانت منه التفاتة فدب إليه الفزع رغم ما يعرف من هدوء طبعه .

إذ وقع نظره على فأر قابع على المقعد المصنوع من الخشب العتيق على يمين الموقد ، فأر هائل يحدق به مليا بعينين رهيبتين ، فلوح بيده يريد طرده ولكنه لم يتحرك ، فرفع يده كأنه يهم بقذفه بشىء ، غير أنه لم يتحول ، بل كشر عن أنيابه البيضاء فى حنق ،

ولمعت عيناه القاسيتان على ضوء المصباح وقد ازدادتا خبثا وحدة .

وجد مالكولم نفسه دهشا مذهولا ، فنهض يتناول القضيب الذى يحرك به النار ، وقصد إليه يريد قتله ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى قفز إلى الأرض وصرخ صرخة حقد مجسم ثم تعلق بحبل الناقوس ولم يلبث أن اختفى فى ظلمة السقف ولشد ما عجب مالكولم إذ سمع ضجة الفئران تعود الى الحياة فى الحال .

وكانت هذه الحادثة قد قطعت على مالكولم حبل تفكيره فى معضلته الرياضية كما أنه سمع الديك يصيح فى الخارج فأوى الى الفراش من فوره .

وكان نومه عميقا لدرجة أنه لم يستيقظ حين أتت مسز ويستر لتنظيم غرفته فلما انتهت من ذلك وأعدت له الإفطار أتت تطرق الباب حتى استيقظ وهولا يزال يحس التعب بعد ليلته الساهرة . غير أنه تناول قدحا من الشاى رد إليه نشاطه ؛ ثم انطلق بكتابه الى الحقول ومعه بعض الساندوتش ، يتصبر به عن الغداء . فلما أوشك اليوم أن ينتهى وقفل راجعا ، خطر له أن يزور مسز وتهام . فما كادت تراه داخلا حتى أقبلت عليه قائلة :

ـ يجب ألا تنهك نفسك هكذا يا سيدى فإن وجهك اليوم شديد الشحوب ، ولكن قل لى يا سيدى كيف قضيت ليلتك ؟ بخير على ما أرجو ؟ إننى لم أطمئن عليك إلا حين أنبأتنى مسز ويستر أنها أيقظتك بنفسها .

ـ لقد قضيت أطيب ليلة وما أزعجنى " شىء " كما تظنين ، فلولا الفئران لما كان لى أن أشكو ، وأن بينهما فأرا عتيقا خبيثا يربض على المقعد ولا يتحرك حتى أهجم عليه بقضيب النار فيتعلق بحبل الناقوس ويختفى لا أدرى أين .

ـ رحماك يا رب ، إنه شيطان عتيق ذلك الذى جلس على الكرسى بجانب النار ، احذر يا سيدى ، احذر . فإن الأمر أخطر مما تظن .

فانفجر مالكولم ضاحكا وقال :

ـ ماذا تعنين ؟ لست أفهم شيئا .

ـ إنه شيطان عتيق ، لا تضحك يا سيدى .. فإنكم أيها الشباب تضحكون مما تقشعر له أبدان الكهول ، ولكن لا بأس يا سيدى ... أهنئك ، فإن هذا خير لك .

قال مالكولم يهدىء روعها :

- أرجو أن تصفحى عنى ، ولكننى قد طربت حين تخيلت أن شيطانا عتيقا كان يجلس على مقعدى ليلة أمس .

وأضحكته الذكرى من جديد . ثم عاد إلى منزله للعشاء .

وفى تلك الليلة بدأت ضوضاء الجرذان مبكرة ، كأن وجوده لم يعد يهمهما ، فلما انتهى من العشاء جلس برهة يدخن ويعجب من ضجة الفئران التى بلغت مبلغا أشد من الليلة السابقة ، وإنها لتضطرب فى كل شبر من الغرفة نابشة قارضة صارخة .

وقد تبلغ بها الجرأة حد الخروج أمامه من أجحارها فتلمع عيونها برهة فى ضوء المصباح ، وهى وديعة عابثة لا شىء فيها من الحقد والشر فيروح يرقبها إذ تسعى على نتوء الخشب ، حتى إذا زادت جرأتها نقر لها على المائدة أو ضرب برجله فسرعان ما تختفى جميعا .

وهكذا انقضى الشطر الأول من ليلته ، وقد اعتاد مالكولم هذه الضجة فلم تعد تزعجه .

ثم إنه توقف على حين فجأة كما صنع بالليلة السابقة ، إذ

أحس بالسكون يخيم على الغرفة دفعة فلا يسمع أى نبش ولا قرض ولا حسيس كأنه فى سكون القبر .. فتذكر عند ذلك ما حدث الليلة السابقة واتجه نظره بغير وعى منه إلى المقعد الخشبى الكبير بجانب الموقد . وعند ذلك سرى فى بدنه شعور غريب مقرون برعدة قاهرة .

وإذا كان يربض على ذلك المقعد العتيق بجانب الموقد ذلك الفأر الهائل وقد صوب إليه عينيه الكارهتين الرهيبتين .

تناول فى الحال بحركة غير إرادية أقرب الأشياء إليه وهو أحد كتبه ورمى الفأر به ، ولكن الكتاب انحرف عنه ، وظل هذا جاثما مكانه لا يحرك ساكنا ، فعاد إلى إجراء الليلة السابقة وانقض عليه بالقضيب ولكنه وثب أيضا قبل أن يناله ، وأسرع يتسلق الحبل وما كاد ذلك الفأر يختفى حتى ملأت الغرفة أصوات سائر الفئران كأنها كانت تنتظر ، ولم يعرف مالكولم فى أى مكان بالضبط يختفى ذلك الفأر ، إذ كان على المصباح مظلة تمنع وصول ضوئه إلى أعالى الغرفة المظلمة ولم يزعجه ما حدث بل شعر فى نفسه أنه نوع من الترويح ، وكان الليل قد انتصف فأخذ فى إعداد قدح من الشاى ، ثم عاود للعمل من جديد إلى ساعة متأخرة ، حتى أحس

بالتعب فاضطجع فى مقعده يدخن غليونه .

أحب أن يعرف أين يختفى ذلك الفأر العجيب فأشعل مصباحا آخر غير مظلل ليضىء أعالى الغرفة ، ثم كوم كتبه بجانبه لتكون قذائف صالحة وقت الحاجة ، وجذب طرف الحبل فجعله على المائدة تحت المصباح وقد لحظ أنه متين رغم قدمه ، وخطر له أنه يكفى لشنق إنسان ، فلما انتهى من كل ذلك قال فى نفسه :

ـ شرفنا الآن بالزيارة أيها الصديق فقد أعددنا العدة لاستقبالك .

ثم عاد يكب على عمله إلى عمله والفئران تزعجه أول الأمر ، ثم لا يلبث أن يألفها وينساها .

ولكنه انتبه مرة ثانية إلى السكون يخيم على الغرفة فجأة ، واشترك فى تنبيهه غير السكون حركة ضئيلة فى الحبل ، أثرت فى المصباح فوقه فاضطرب ، وبغير أن يتحرك هو أدار عينه ليستوثق من قرب الكتب إليه ، ثم نظر إلى أعلا الحبل فإذا به يرى الفأر الهائل يثب من الحبل إلى المقعد الخشبى بجانب الموقد حيث يربض هناك محملقا فيه كسابق عهده .

رفع فى الحال أحد الكتب وقذفها إلى الفأر ، ولكن هذا وثب

ناحية وتفادى القذيفة ، فتناول كتابا ثانيا وثالثا طوحها إلى غريمه فلم تكن أنجح من الأول .

وفى النهاية بينما هو يزن على يده كتابا ويستعد لقذفه به صرخ الفأر وبدا عليه الخوف فزاد هذا فى عزم مالكولم وقذفه بالكتاب بقوة فأصاب الفأر إصابة مباشرة جعلته يصرخ صرخة ذعر ووجه إلى مهاجمه نظرة مبغضة رهيبة .

ثم صعد إلى ظهر المقعد ووثب وثبة هائلة أوصلته إلى الحبل فى سرعة البرق ، واضطرب المصباح الذى يعلو طرفه ولكنه كان ثقيلا فلم يسقط .

وتابع مالكولم الفأر المتسلق على ضوء المصباح الآخر فرآه يسعى على الألواح حتى ينتهى إلى أحد الصور الكبيرة فيختفى فى شق غير ظاهر لكثرة الغبار المتكاثف عليه .

قال مالكولم وهو يجمع كتبه :

- فى الصباح نقوم بمعاينة مأوى هذا الصديق ، الصورة الثالثة على يمين الموقد .

ثم راح يجمع الكتب وهو يستعرض أسماءها ويرى أى الكتب

التى أفلحت فى إصابته ، حتى انتهى إلى ذلك الذى أصابه فسرت فى بدنه رعدة وامتقع وجهه إذ كان هذا الكتاب هو الإنجيل فقال فى نفسه وهو يتلفت حوله فى انزعاج :

ـ الإنجيل الذى أعطيتنى إياه أمى ! يا لها من مصادفة عجيبة !

ثم عاد إلى عمله ، واستأنفت الفئران ضجيجها وهى لا تزعجه بل تؤنسه ويحس أن بينه وبينها شبه زمالة فلم يأو هو إلى فراشه إلا وقد أخذت أول خيوط الفجر تبدو من النافذة .

نام تلك الليلة نوما عميقا إلا أنه غير هادىء وقد تكاثفت عليه الأحلام والأضغاث فلما أيقظته مسز ويبستر فى الصباح كان تعبا منهوكا وجابه المرأة بسؤال أدهشها قال :

ـ أرجوك يا مسز ويبستر أن تعملى اليوم فى غيبتى على تنظيف هذه الصور جدا بالماء لأننى أريد النظر إلى ما فيها .

وظل معظم يومه فى الخلاء مكبا على القراءة وقد عاودته طمأنينته ونشاط ذهنه حتى لان له ما كان مستعصيا من المعضلات .

فبينما هو عائد أدراجه خطر له أن يعرج على مسز وتهام فوجد عندها رجلا غريبا قدم إليه على أنه الدكتور ثورنهل وقد

بدت المرأة غير مطمئنة كما أن الطبيب أخذ يوجه إليه أسئلة عجب منها فقال :

ـ سوف أجيبك على ما تريد يا دكتور ثورنهل على أن تجيب على سؤال واحد .

فدهش الطبيب إلا أنه ابتسم وقال :

ـ فليكن . ماذا تبغى ؟

ـ هل طلبت إليك مسز وتهام أن تأتى خصيصا لتسدى إلى النصح ؟

فسقط فى يد الطبيب واحمر وجه مسز وتهام ، وكان الطبيب رجلا صريحا فقال :

ـ هو ذاك ، لقد طلبت إليك ذلك إذ كرهت انفرادك فى ذلك البيت الكبير ، وكرهت إرهاقك نفسك بالعمل واحتساء الشاى وقد تخرجت أنا الآخر من الجامعة فلعلك لا تستثقل نصحى إليك .

فابتسم له مالكولم وصافحه شاكرا يقول :

ـ أشكرك يا مسز وتهام على طيبة قلبيكما وأعدكما ألا أتناول الشاى إطلاقا ، وألا أسهر بعد الساعة الواحدة أيرضيكما

هذا ؟

فقال الطبيب :

ـ عظيم . والآن حدثنا بما صادفت فى ذلك المنزل العتيق .

فراح يسرد على مسامعهما كل ما صادفه ومسز وتهام تعلق على أقواله كعادتها حتى إذا انتهى إلى قصة الإنجيل بدرت منها صيحة ارتياع ، ولم تعد إليها سكينتها إلا بعد لأى وإن الدكتور ثورنهل ليصغى فى اهتمام متزايد .

فلما انتهت القصة قال :

ـ أيختفى الفأر دائما عن طريق حبل الناقوس ؟

ـ دائما .

ـ أحسبك تعرف قصة هذا الحبل .

ـ كلا .

ـ إنه الحبل الذى كان يستعمله الجلاد فى شنق جميع من حكم القاضى بإعدامهم .

فبدرت من مسز وتهام صرخة ثانية وعقبها إغماء كلى هذه

المرة .

وكانت ساعة العشاء قد حانت فقام مالكولم لينصرف قبل أن تثوب إلى رشدها .

فلما أفاقت راحت تلوم الطبيب على وضعه هذه الأفكار فى عقل الشاب كأنه لم يكفه ما عنده ، فقال لها :

ـ لقد قصدت من ذلك القول إلى غرض إذ أردت أن ألفته إلى ذلك الحبل بالذات ، وقد كدت أطلب منه قبولى ضيفا عليه ليلة ولكننى خفت أن يجرح ذلك شعوره ، والذى أريده أن يعمد عندما يرى ما يفزعه أو يؤذيه إلى جذب الحبل وقرع الناقوس ، وسوف لا أنام الليلة مبكرا ، فلا تعجبى إذا سمعت ناقوس الإنذار يدوى فى أرجاء بنتشرش قبل الصباح .

ـ ماذا تعنى يا دكتور ؟ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أننا سنسمع الناقوس يدق الليلة من بيت القاضى .

وألقى الطبيب هذه العبارة الخطيرة ثم عمد إلى الخروج بأسلوب أخطر .

ولما وصل مالكولم إلى المنزل وجد مسز ويبستر قد رحلت ،

وسره أن يجد المكان نظيفا مرتبا يضيئه كل من المصباح ونار الموقد .

وكانت ليلة باردة والريح تعصف منذرة بالعاصفة ، وكانت الفئران تضطرب من حوله كعهدها وتبث فى نفسه الاطمئنان بوجودها والعجب من صمتها ساعة ظهور ذلك الفأر الرهيب .

ثم إنه جلس إلى عشائه يتناوله بشهية مطمئنا منشرح الصدر ، حتى إذا انتهى جلس للعمل من فوره وقد ذكر وعده بالنوم المبكر وعزم على استغلال وقته جميعا .

ظل يعمل نحوا من ساعة باستمرار ، ثم أخذت أفكاره تشرد عن الكتب ، وكانت الريح قد استحالت عاصفة هوجاء وبدا كأن المنزل العتيق يهتز من أساسه ، والريح ذات زئير فى المداخن ومنافذ الماء فتحدث أصواتا رهيبة فى الغرفة والممشى ، حتى الناقوس العظيم فوق السطح أثرت فيه العاصفة وجعلت حبله المدلى فى الغرفة يهتز بين الحين والحين ويضرب خشب الموقد محدثا صوتا غريبا أجوف .

فبينما مالكولم يصغى إلى هذا الصوت إذ تذكر مقالة الطبيب فقام إلى الحبل يمسكه ويمتحن صنعه ، وبينما هو كذلك شرد ذهنه

مفكرا فيمن شنقوا بهذا الحبل وما أغرى القاضى بإدخال هذا الحبل الرهيب إلى بيته .

وكان الحبل لا يزال يهتز وهو قابض عليه من الريح ، ولكنه لم يلبث أن أحس بحركة جديدة مختلفة كأن شيطانا يتحرك عليه من فوق فرفع مالكولم نظره بحركة غريزية وإذا بذلك الفأر الهائل ينحدر إليه على الحبل فارتد وهو يتمتم بالسباب فى حين عاد الفأر يتسلق الحبل مختفيا ، لحظ مالكولم أن ضجة الفئران التى كانت قد انقطعت لحظة عادت إلى الظهور ثانيا .

دعاه ذلك إلى التفكير ، وذكر أنه لم يعاين بيت الفئران ولم ينظر إلى الصور كما كان ينوى ، فأشعل المصباح ورفعه متجها به إلى الصورة الثالثة على يمين الموقد .

فما كاد ينظر إليها حتى ارتد إلى الوراء فجأة وكاد المصباح يهوى من يده ثم سرى فى وجهه امتقاع شديد وأخذت ركبتاه تصطكان ، وتصببت قطرات العرق من جبينه ، ولكنه كان ذا شباب وشجاعة فاستجمع شتات نفسه ولم يتوان عن التقدم وهو يرفع المصباح ليفحص الصورة التى غسلت ونظفت وبدت أمامه سافرة .

كانت صورة قاض فى ثياب القضاء الحمراء المصنوعة من الفراء ، وجهه قوى صارم فيه شر وخبث ودهاء وفمه شهوانى وأنفه قانى اللون معقوف كأنه منقار طير جارح ، أما سائر الوجه فشاحب شحوب الموت ، والعينان ترسلان بريقا حادا صارما يتمثل فيه المكر والحقد ، وإنه لينظر إليهما فتمشى فى بدنه رعدة جارفة وقد رآهما شبيهين بعينى الفأر الهائل .

ثم كاد المصباح يهوى من يده ثانيا إذ رأى الفأر بعينيه الرهيبتين يطل عليه من ثغرة بركن الصورة ، وسمع جلبة الفئران تسكن من فورها ومع ذلك جمع شتات نفسه وواصل فحص الصورة .

كان القاضى يجلس على مقعد كبير مرتفع مصنوع من الخشب ، وعن يمينه موقد عظيم قد تدلى بجانبه من السقف حبل ينهى طرفه مثنيا على الأرض ، فعرف مالكولم والرعب يقتله أن هذا منظر الغرفة ذاتها ، والتفت خلفه مذعورا كأنه يتوقع رؤية شىء رهيب وراءه ، فما كاد ينظر إلى يمين الموقد حتى بدرت منه صرخة هلع وهوى المصباح من يده ، إذ كان هناك على مقعد القاضى الذى يتدلى الحبل خلفه ذلك الفأر الهائل وقد ربض مصوبا إليه نظرة

شيطانية بعينين تشبهان كل الشبه عينى القاضى الرهيبتين ، وأن السكون ليخيم على كل شيء لولا العاصفة وقصف الريح ..

رد المصباح الساقط إلى مالكولم ثباته وكان مصنوعا لحسن الحظ من المعدن فلم ينسكب الزيت وانحنى مالكولم ليرفعه ثم مسح جبينه وقال فى نفسه :

ـ لا يمكن أن يدوم هذا ، فإذا بقيت هكذا انتهيت إلى الجنون بغير شك ، يجب أن ينتهى هذا وقد وعدت الطبيب بالإقلاع عن الشاى والسهر ، وما أحسبه إلا مصيبا فى أمر اضطراب أعصابى ، والعجيب أننى أحس نفسى صحيحا وبأحسن حال ، على أننى لن أعود إلى هذه الحماقة ثانيا .

وأفرغ لنفسه كأسا من البراندى جرعه فى صمت وعاود العمل ، وكان بعد ذلك بساعة أن وقع بصره وقد أفزعه الصمت المفاجىء .

وكانت الريح تزمجر فى الخارج والمطر ينهمر على زجاج النوافذ كالسيل ، أما الغرفة فصامتة لا حس بها إلا صفير الريح فى المدخنة والنار قد أوشكت أن تخبو ولم يبق إلا الوهج الأحمر الذى يسبق الانطفاء فراح مالكولم ينصت فى صمت حتى سمع صوت صرير رفيع خافت ، وكان ذلك آتيا من ركن الغرفة حيث تدلى

الحبل فظن السبب هو احتكاك طرف الحبل بالأرض .

ثم رفع بصره فرأى الفأر الهائل متعلقا بأعلى الحبل يقرضه حتى كاد أن ينقطع ولم يبق منه غير خيوط سرعان ما تآكلت وسقط الجزء الأسفل من الحبل إلى الأرض فى حين ظل الفأر متعلقا بالباقى وهو يتأرجح يمينا وشمالا .

فسرت فى نفس مالكولم وخزة شديدة من الذعر إذ عرف أنه لا يستطيع بعد الآن أن يتصل بالعالم عن طريق الناقوس ولكن الغضب لم يلبث أن غلب ذعره فرفع الكتاب الذى يقرؤه وقذف الفأر به .

وكانت قذفة موفقة لولا أن قفز الفأر فى اللحظة المناسبة إلى الأرض ، فانقض مالكولم عليه ولكنه أفلت منه وتوارى خلف بعض الأحجار ، عرف مالكولم عندئذ أن عمل الليلة قد انتهى ، فتناول المصباح ينزع عنه ظلمه ليلقى الضوء فى كافة النواحى وعند ذلك ظهرت الصور المعلقة على الحائط فى وضوح .

فالتفت مالكولم نحو الصورة الثالثة عن يمين الموقد ، وما كاد يفعل حتى مسح عينيه من الدهشة وغشى نفسه خوف قاتل رهيب .

إذ كانت الصورة كما هى فيما يتعلق بمعالم الغرفة من الموقد والحبل والمقعد الخشبى الكبير ، ولكن لم يكن بالصورة أى أثر للقاضى ..

استدار مالكولم ببطء وهو يرتعد من الفزع فما كاد يفعل حتى شملته رجفة عنيفة وغاضت القوة من بدنه وشلت حركته وعجز عن كل شىء حتى الفكر ، غير أنه ظل يرى ويسمع ..

إذ كان يجلس على المقعد الخشبى المرتفع القاضى ذاته فى ثيابه الحمراء المصنوعة من الفراء ، وهو يصوب إليه نظرة قاتلة من عينيه الرهيبتين وقد ارتسمت على فمه القوى القاسى بسمة ظافرة إذ رفع من على رأسه قلنسوة سوداء .

أحس مالكولم كأن الدماء تغبض من قلبه وأخذت أذنه تصفر صفيرا طغى على زئير العاصفة فى الخارج .

وهكذا ظل زمنا خيل إليه أنه دهر وهو جامد كالتمثال محتبس الأنفاس يحملق إلى الجالس أمامه بعين مرتاعة يائسة ، ثم دقت الساعة فازدادت الابتسامة الظافرة انتشارا فى وجه القاضى ولم تدق آخر دقات منتصف الليل حتى رد قلنسوته السوداء إلى رأسه .

ثم نهض القاضى ببطء من مقعده والتقط قطعة الحبل الساقطة

وهو يتحسسها كأنه مسرور بملمسها ، وشرع يعقد أحد طرفيها على شكل أنشوطة وهو يضيقها ويشدها ويمتحنها بقدمه على الأرض حتى صارت طوقا محكما يرفعه فى يده .

ثم إنه بدأ يتحرك بمحاذاة النافذة صوب مالكولم حتى بلغه وجاوزه ثم وقف أمام الباب ليسده ..

عند ذلك أدرك مالكولم أنه قد وقع فى شرك ، وراح يحاول أن يعمل ذهنه سريعا .

ولكن عينى القاضى تسمرانه فى مكانه وتسلبانه كل قوة وتجتذبان نظره اجتذابا إليهما ، وجعل الشبح يقترب منه وهو لا يزال يسد الطريق إلى الباب والحبل مرفوع فى يده ، لا يلبث أن يقذفه نحوه يريد أن يصيب به عنقه ولكنه جاهد ووثب إلى ناحية أخرى فسقط الحبل على الأرض .

فعمد القاضى إلى التقاطه من جديد ليقذفه عليه ثانيا وثالثا يريد اقتناصه وهو لا ينجو فى كل مرة إلا بشق النفس ، والقاضى لا يداخله اليأس كأنه يستمرىء هذه المطاردة .

وحانت من مالكولم لفتة فى الغرفة الواسعة المنيرة فأبصر عند كل شق من الشقوق عينين لامعتين ترقبان ما يجرى وبث ذلك فى

نفسه سكينة واطمئنانا .

وكذلك كان حبل الناقوس مغطى بالفئران من أوله لآخره وهو يتأرجح من ثقلها ولم تزل الفئران تتكاثر على الحبل حتى جعلته يهتز ويحرك الناقوس فإذا به يدق ويدوى ويحدث أصواتا مستمرة مزعجة .

فلما سمع القاضى صوت الناقوس رفع بصره إلى الحبل وقد تجهم وجهه واعتراه غضب شيطانى رهيب وأن عينيه لتتقدان كجمرتين ملتهبتين وهو يضرب الأرض بقدمه فيكاد يهز البيت هزا .

وقصف الرعد بشدة إذ رفع القاضى أنشوطته والفئران تضطرب متعلقة بالحبل كأنها تتسابق وتتأرجح .

ولكن القاضى لم يرم الحبل هذه المرة بل تقدم به من فريسته وهو يمغنطها بنظراته حتى تعجز عن كل حركة ..

ووقف مالكولم كالجثة الهامدة يرتقب القاضى وهو يتقدم منه ، ثم مست عنقه أصابع باردة أخذت تثبت الحبل حول عنقه وتشده حتى يضيق ويضيق .

ثم أمسك القاضى بجسم الطالب وهم بحمله وعند ذلك سمع طرقا

عنيفا على باب المنزل .

وما يذكر مالكولم بعد هذا غير صورة الفئران وهى تنطلق هاربة من فوق الحبل وقد أزعجها الطرق ، وعين القاضى القاسية الباردة محدقة به فى بغض وتردد .

ثم غاب عن الوعى ..

عندما بدأ الناقوس يدق أخذ الناس يتجمعون حول منزل القاضى وظهرت المشاعل والأضواء من كل صوب .

ثم تقدم جماعة من الناس إلى المنزل وأخذوا يطرقون بابه حتى يئسوا .

فعمدوا إلى كسر الباب وتدفقوا إلى غرفة المائدة الكبيرة وعلى رأسهم الطبيب ثورنهل .

وهناك بقرب المقعد الخشبى الكبير وجدوا الطالب ملقى والحبل فى عنقه وهو غائب عن الوعى .

فلما نظروا إلى الصورة الثالثة بجانب الموقد لم يفهموا من أمها شيئا ، ولم يدهشهم ألا يجدوا بها للقاضى أثرا .

برام ستوكر

قناع الموت

قناع الموت

كان صديقى (لوشيوس ليفنغ) يهتم خاصة بالمواقف التى يبدو فيها عنصر خارق للطبيعة ، ومع ذلك فلم يكن يحصر اهتمامه فقط بالميدان النفسانى ، بل إن كل ما هو غريب غامض له علاقة ببشاعة الموت كان يجذب انتباهه ، وفى بعض الأحوال يحمله على التدخل .

وبالمناسبة تذكرت الآن حالة من تلك الحالات فقد كنت أتصفح مذكراتى ووقعت على هذا العنوان " قناع الموت " .

منذ عدة سنوات وفى نهاية تشرين الأول (أكتوبر) كانت إحدى الصحف قد كتبت عن امرأة اسمها مسز ميرو ، تسكن شارع المطرانية فى نيوهافن .

لقد شنقت نفسها فى قبو البيت .. وليس الانتحار بواسطة الشنق مع الأسف بالأمر النادر وخصوصا لدى الأشخاص المسنين . ولكن قصة السيدة ميرو كانت تحمل طابعا خاصا أثار فضول ليفنغ

فجأة .

عندما توصل رجال الشرطة بناء على طلب الجيران إلى كسر الباب واكتشاف جثة المرأة المسكينة تتأرجح ، لاحظوا أن المنتحرة كانت تغطى وجهها بقناع فظيع المنظر .. وقد أشارت الصحيفة إلى ذلك القناع ولكنها لم تنشر عنه أى شرح أو تفاصيل ، ولقد اعتبر يوم ذاك انتحار المرأة أنه نتيجة لصحتها المتدهورة . وذكرت عمرها أيضا ، كانت فى الثالثة والسبعين .

بعد مضى أسبوع على تلك الحادثة كنت فى زيارة ليفنغ العزيز وبينما كنا نتناول قدحا إذا بصديقى يأتى على ذكر الحادث ويشدد على وجود القناع .

وقال لى وهو ينظر نظرة شاردة :

ـ إن ذاك القناع يحيرنى يا بريتن ، إذ إنه يفرض بعض الشروحات والتفرعات .

وبعد أن رفعت كتفى قليلا أجبته :

ـ إن الشرح قد يكون من أسهل الأمور . ربما تكون تلك العجوز قد فكرت قبل أن تقدم على الانتحار بأنها لا تريد إلقاء

الرعب فى نفس الشخص الذى سيكتشفها والذى سيراها حتما بحالة مرعبة بشعة مسودة الوجه مشنجة العضلات ظاهرة اللسان وإلى ما هناك من مظاهر الموت فى مثل هذه الحالة ، لذلك وضعت القناع على وجهها لتستره ، أو لأنها لم ترد أن يحتفظ جيرانها عنها بآخر منظر لها على تلك الصورة .

- إن كل هذا قد يكون ممكنا ولكن بما أنها كانت تحرص على هذه الناحية فلماذا لم تنتق طريقة أخرى للانتحار لا تؤثر على مظهرها كثيرا ، كفتح شريان من شرايينها مثلا أو كالاختناق بواسطة الغاز أو غير ذلك ؟

ولم أعد أذكر بما أجبته حينئذ غير أنى مازلت أذكر تماما بأن الحديث تفرع وتشعب وتناولنا عدة جوانب ثم استأذنت وانصرفت .

وبعد عدة أسابيع عندما زرته ثانية قال لى ليفنغ بأنه قام شخصيا ببعض التحقيقات بخصوص قضية ميرو .

- وماذا اكتشفت ؟

- اكتشفت بعض الوقائع - بعض التفاصيل طبعا - غير أنها وقائع تحيرنى ، مثلا إن السيدة ميرو كانت بصحة ممتازة وحالتها فى مثل سنها كانت على ما يرام .

ـ إذن أنت تستنتج بأنه كان لديها سبب آخر للانتحار .

وبعد أن وضع ليفنغ قدحه قال :

ـ طبعا يوجد هناك سبب مجهول .. ولكنه قد يكون سببا عاديا بحتا ، فالأشخاص المسنون هم عادة عرضة لنوبات عصبية تفقدهم الشجاعة حتى ولو كانوا بصحة عادية لا تدعو إلى أى خوف .

ـ وماذا علمت أيضا ؟

ـ أن آل ميرو يقطنون ذلك البيت فى شارع المطرانية منذ ٤٦ سنة ، ولم يكن لديهم أولاد . فالسيد ميرو مات قبل زوجته بثلاث سنوات إثر نوبة قلبية بينما كان يعمل فى الحديقة ، وبعد موت الزوج عاشت الزوجة حياة متواضعة غير أنها كريمة وذلك من إيراد كان يصلها كل شهر إذ أصبحت المالك الوحيد للبيت .

ـ ولكن ما هو الشيء غير العادى فى كل هذا ؟

ـ إن هذه الأشياء تكون غير عادية لأنها لم تكن السبب الحقيقى للانتحار ، فالخوف من الغد والخوف من الصحة لم يكونوا سببا لما قامت به .

وبعد أن هززت برأسى أجبته :

- فى هذه الحالة أخشى أن يظل سبب الانتحار غامضا إلى ما شاء الله .

وهنا ارتسمت على وجه ليفنغ المحدد الزوايا ابتسامة مطاطة بشعت قسماته وقال :

- أنت تعلن سريعا عجزك من حل اللغز يا بريتن ، أما أنا فإن قضية القناع مازالت تشغلنى .

- طبعا إنه عمل غير طبيعى ولم يصدر عن تفكير ، ولكن مثل هذه الأشياء لا تكون أبدا بدون معنى .

ولم أحاول الإجابة عليه ظنا منى بأن موضوع هذا الحديث قد انتهى ، وقلت فى نفسى إن ليفنغ يكون مجنونا فيما إذا بقى يشغل نفسه فى أمر كهذا ، فحالته المادية متدهورة وهو بحاجة ماسة لأن يشغل نفسه بأمور تدر عليه بعض المال .

ولكنى لم أتعجب مطلقا عندما تلقيت منه ذات مساء مخابرة هاتفية ذلك بعد مضى شهر تقريبا على لقائنا الأخير يقول لى إنه اكتشف " سر قناع السيدة ميرو " .

وعلى الرغم من أن المهم فى القضية كان قد عرف عن طريق

واسطتين أو ثلاث ، فإنى لم أستطع مقاومة الرغبة فى نشرها لأن طريقة البحث التى استخدمها ليفنغ تبدو لى ـ أنا على الأقل ـ على جانب كبير من الأهمية وهى خاصة متميزة به بالنسبة لطريقة تفكيره .

ولم تمض ساعة على مخابرته الهاتفية حتى كنت أستلقى على مقعد من صالونه الفيكتورى ، وجلس ليفنغ فى مقعده المفضل ولم يحاول إخفاء مزاجه المرح ، ومع ذلك بدا لى أن مسحة غامضة من القلق ـ وهذا أمر متناقض مع حالته الظاهرة ـ كانت تساوره ، وقلت له :

ـ إننى على أحر من الجمر لسماعك .. من أية ناحية ابتدأت تحقيقك ؟

وبعد هنيهة صمت وجيزة قال :

ـ يجب أن تعذرنى لهذه المقارنة التى تبدو لك تافهة نوعا ما . إنى لا أستطيع إلا أن أفكر بلعبة " البوزل " إنك تأخذ فى يدك عدة قطع ثم تديرها فى جميع النواحى ثم تأخذ كل قطعة منها لتضعها مواجهة للقطعة الثانية وتبقى تفعل كذلك حتى تتلاثم كل منها مع الأخرى ويتآلف من الجميع صورة كاملة .. وهكذا أنا

استحصلت على عدة وقائع (امرأة عجوز تتمتع بصحة جيدة وبدخل لا بأس به ثم تقدم على الانتحار .. وقبل أن تقتل نفسها تضع على وجهها قناعا قديما وبحالة سيئة . لقد جرى ذلك فى أواخر تشرين الأول ، وهى أرملة منذ ثلاث سنوات فزوجها كان قد مات إثر نوبة قلبية وهو يحفر فى الحديقة ، وليس لها أولاد) .

وبعد أن توقف قليلا قال لى :

ـ هل باستطاعتك الآن أن تجمع بعض هذه العناصر ؟

وفكرت بضع ثوان هززت برأسى نفيا .

وانفجر غاضبا وقال :

ـ ولو .. إنك تخيب ظنى فيك يا بريتن . يجب أن تفهم الصلة القائمة بين القناع وشهر تشرين الأول .

إنه عشية عيد جميع القديسين طبعا ـ هذا هو المهم ـ هذا هو الرئيس فى الموضوع ، إذن أمامنا عنصران من الوقائع التى يمكننا الآن أن نجمعهما إلى بعضهما ، ولكن إلى أين يمكن أن يقودانا ؟

ـ ليس لدى أية فكرة على ذلك .

أجابنى ليفنغ هازئا :

ـ إنما أنا قد وجدت تلك الفكرة .

ـ فإذا كانت هناك صلة بين القناع وعيد جميع القديسين فيجب أن تكون الصلة نفسها بين عيد جميع القديسين والانتحار نفسه كما كنت مدركا أن يكون ذلك قد حصل من قبيل المصادفة فقط ، ولكن باستطاعتي المحاولة .

وبعد أن أطلقت زفرة قصيرة قلت :

ـ " إني متفق معك على اثنين من حلقات لعبة " البوزل " قد توافقنا ، ولكن لا بد أن أقول لك بأني مازلت ضائعا بالنسبة لبقية الحلقات .. فكيف ستتوصل إلى ذلك ؟

وارتسمت الابتسامة التقليدية على زاوية فم ليفنغ وبشعت زوايا وجهه من جديد ثم قال :

ـ إني أعترف بأني تهت بعض الوقت وسط ضباب كثيف ، غير أني عدت وقررت الذهاب إلى مكتبة البلدية وابتدأت ببحث مدروس .

ـ إني أتساءل فعلا بأي ميدان ؟

ـ ابتدأت بتفتيش سجل نيوهافن تفتيشا دقيقا يوما بعد يوم

طوال أشهر تشرين الأول وابتدأت أصعد مع الزمن .

ـ وماذا كنت تأمل أن تجد ؟

ـ في الواقع كنت لا أعرف عن ماذا أبحث غير أنه كان لدى شعور خفى بأنى إذا وجدت شيئا فلابد أن يثير انتباهى .

ـ إن تفتيشك يبدو لى منطقيا على ذلك المثل ' فتش عن الإبرة وسط جبل من القش ' .

ـ كلا .. لم يكن ذاك بالغريب لأنى توصلت إلى ما أبغى ، وسنة بعد سنة استعرضت كل أشهر تشرين الأول مبتدءا بآخر الشهر ، وبعد ست سنوات أى بعد سنة من أشهر تشرين الأول ابتدأت أشعر بالملل ، غير أنى تابعت وما وصلت إلى التاسع يا بريتن حتى عرفت أننى انتصرت .

ـ هذا غير معقول .. وما اكتشفت ؟ وكيف عرفت بأن هذا ما تقصده ؟

ـ فورا بعد أن وضعت إصبعى على تلك الحادثة شعرت أن كل شىء اتضح أمامى وانجلى تفكيرى ، فالمعضلة قد انحلت بأجمعها ، وكل قطع ' البوزل ' اجتمعت وتوافقت على الأقل أكثرها حتى

الآن .

ـ ولكن بحق السماء قل لى ماذا اكتشفت ؟

وأشرق وجه ليفنغ قليلا وقال :

ـ لقد مضى على ذلك ثمانى سنوات عندما اختفى دونالد كلافن كان عمره تسع سنوات فقط واختفى ليلة عيد جميع القديسين كان يسكن مع أهله فى شرع المطرانية بالقرب من آل ميرو ولم يعرف عن اختفائه أى شىء ، لقد بقى غامضا مجهولا حتى الآن .

ولكن أظنك لا تتصور بأنه كان لتلك العجوز المسكينة ضلع فى هذه المأساة .

ـ ومع ذلك فهذه هى الحقيقة بعينها .

ـ ولأى سبب ؟

ـ كما يقول جيران مسز ميرو لم تكن تلك العجوز تحب الأطفال مطلقا وكذلك لم يكن الأطفال يحبونها ، كانت تمنعهم من دخول حديقتها منعا باتا حتى ولو اضطروا لجلب الكرة فيما إذا سقطت بعض المرات فيها مثلا ، ودونالد كلافن كان من أولئك الأطفال

المشاكسين ، وقد تأخر فى اللعب تلك الليلة ، وكما قال عنه رفاقه " لقد أمضى ساعات طويلة فى ذلك المساء وهو يقرع الجرس ويدق عليها "

ولذلك استنتجت أنا بأنه ربما يكون قد قرع أكثر من اللزوم على باب العجوز مما أثار غضبها وقامت فجأة إلى الباب وفتحته وقبضت على الطفل ، طبعا لم تكن تريد قتله ، إنما كل ما كانت تبغيه تأديبه فقط ، ولكنها نظرا لمزاجها العصبى فإنها لم تعرف حدود قوتها بالنسبة للولد ، يجوز أن تكون أمسكت به من خناقه ودون أن تدرى وأجهزت عليه .

- ولكن هذه الأشياء لا تتعدى حدود الافتراض .

وأجابنى بكل هدوء :

- يجوز .. ولكنك لن تتأخر عن الاقتناع .

- لنعتبر إذن أن افتراضاتك هذه هى صحيحة . فماذا جرى بعد ذلك ؟

وقال ليفنغ :

- ليس من الصعب ذاك . طبعا بعد أن رأت الولد جامد بين

يديها ارتعبت وسحبته إلى الداخل وحاولت إيقاظه وعندما لم تستطع ذاك احتارت فى أمرها أولا هل تذهب إلى البوليس وتخبره بالأمر ، ولكن ماذا يكون مصيرها ؟ طبعا ستتعرض للمحاكمة وللسجن وحتى للموت ، وأين تذهب بصيتها وصيت زوجها ؟

ولهذه الاعتبارات فضلت إخفاء الجثة وكتم الأمر ، وهذا ما فعلته ، وذهبت إلى الحديقة الخلفية حيث حفرت حفرة أخفت الولد فيها ، لقد تم ذلك أثناء الليل .

وقلت له مستفهما :

ـ ولكن زوجها . ماذا فعل ؟

وقال لى ليفنغ :

ـ إنه سؤال محرج فعلا ، السيد ميرو فى تلك الأيام كان ممثلا تجاريا ، ولذلك كان عمله يضطره للسفر دائما ومن المحتمل جدا أن يكون فى تلك الليلة غائبا عن البيت ، لأنه لو كان فى بيته فى ذلك المساء فإنى اعترف لك بأن كل ما توصلت إليه لا يتعدى حدود الخيال والافتراض .

ـ لا يهمنى . بل أكمل .

ـ وأخذت السنوات تمر متتابعة الواحدة بعد الأخرى والسيدة ميرو تحتفظ أمام عينيها بذلك المنظر المرعب لعملها ذاك ، وكلما جاء عيد جميع القديسين كان بمثابة تجديد لعذابها ، وهكذا كان كلما حل ذلك اليوم كلما تجسمت جريمتها أمامها وأخذت تعذبها وتؤنبها ، إن ضميرها كان يقف لها بالمرصاد ، إنه حاضر معها دائما ، والضمير ذلك الصوت المرعب الجبار ، هل تظن أنه يصمت ؟ فحياة تلك المرأة أصبحت جحيما لا يطاق .

ـ وبخصوص اختفاء الصبى لم يبد أحد أى افتراض ؟

وبعد أن هز ليفنغ رأسه قال :

ـ أبدا .. بل ظل اختفاؤه سرا غامضا على الجميع ، طبعا لقد افترضوا عدة حلول للقضية غير أنها كانت كلها لا ترتكز على أساس ..

منهم من ظن أن الولد قتله أحد الأشرار ، ومنهم من قال إنه قد يكون سقط فى أحد الآبار المهجورة قضاء وقدرا ، وإلى ما هنالك من الأقاويل التى لا ترتكز على شيء كما قلت لك ، فكل التحريات وكل التنقيبات لم تسفر عن أية نتيجة .

ـ قلت منذ لحظة بأنه فى حال وجود السيد ميرو فى البيت تلك

الليلة أثناء وقوع الجريمة فإن كل افتراضاتك تذهب هدرا ، فماذا تعنى بذلك ؟

- هل تتذكر ظروف موت السيد ميرو ؟

- نعم .. لقد قلت لى إنه مات إثر نوبة قلبية وهو يعمل فى حديقته .

وبعد أن رفع ليفنغ إصبعه محتجا قال لى :

- أرجوك إن للتعابير قيمتها فى مثل هذه الظروف ، لقد قلت لك مات وهو ' يحفر ' فى الحديقة لا وهو ' يعمل ' .

وبما أن تعابير هذه الجملة لا يبدو فيها أى شىء من الأسرار ، لذلك لم أتمالك من القول :

- بربك يا ليفنغ ولكن هذه الأشياء ليس لها أية قيمة فهى لا تتعدى النظريات فقط ، إنى أراك تسبح كثيرا فى الخيال ، ربما يكون ميرو قد مات بعد إجهاد جسدى قوى لم يقدر على تحمله .

- إنى مقتنع معك ولكن فى هذه الحالة تبقى قطعة واحدة من لعبة البوزل غير مطابقة تماما .

ولكن لنفترض أن السيد ميرو اكتشف جثة الصبى فذلك لا

يعنى أنه فكر رأسا بامرأته أو بأنها هى التى قامت بذلك العمل ، أو أن لها ضلعا فى القضية .

ومرة أخرى نضطر إلى التفكير نظريا ، فبطريقة أو بأخرى ، فإن جريمة كبيرة مثل هذه لا بد وأن تظهر مع الأيام ، فمن الجائز جدا أن السيدة ميرو بتصرفاتها وباضطرابها الظاهر لابد وأن تكون قد أحدثت بعض الشك فى نفس زوجها ، ومن سنة لأخرى خصوصا فى عيد القديسين لابد من أن يكون ميرو قد لاحظ أشياء كثيرة على زوجته أثارت انتباهه ، وفى الأخير توصل لمعرفة الحقيقة ، طبعا لم يحاول مجابهة زوجته بما يعرف كما وأنه ظل يتجاهل الأمر ، وكان يعمل جهده لطرد تلك الفكرة من رأسه ، غير أن ضميره بقى يتصور بأن زوجته قتلت الولد .

وهنا قلت له محتجا :

ـ ولكن هذا لا يفسر أبدا النوبة القلبية .

ـ أظن هذا يا أستاذ . فعندما كان يحفر فى الحديقة وظهرت عظام الصبى فجأة أمامه انكشفت الحقيقة له بكل وضوح وبكل عنف فلم يحتمل قلب ذاك العجوز الصدمة مطلقا وكانت ضربة قوية جدا لذاك القلب الهرم فصمت فجأة .

ـ لنفترض أن الأشياء حدثت هكذا ، فكيف تفسر لى عدم اكتشاف بقايا الولد حينئذ ؟

ـ طبعا إن السيدة ميرو هى التى اكتشفت زوجها فى بادىء الأمر وقبل أى إنسان آخر ، وبدون شك لم تتوان مطلقا من إلقاء التراب على الحفرة قبل أن تذهب وتنادى الطبيب .

مع كل هذا الشرح الواضح يبدو لى أنك نسيت شيئا آخر أيضا نسيت القناع .

ـ إنى أعتقد بأن القناع العتيق الممزق الذى وجد على وجه المرأة وهى مشنوقة ليس سوى القناع الذى استعمله الولد فى تلك الليلة ، ليلة عيد جميع القديسين .

ـ ولكن لماذا لبست ذاك القناع قبل أن تشنق نفسها ؟

ـ إنه الضمير . إنها القوة الخفية الدافعة التى تجبر المذنب على الاعتراف ، وإذا أمكننى هذا التعبير أقول إنه الميل الغامض الكامن فى أعماق المجرم ليزيل القناع عن نفسه ، فالإنسان من هذه الناحية كالرحم تماما ، فهذا العضو من جسم المرأة لا يطيق شيئا غريبا عنه ، قد يتحمله لمدة من الزمن ولكن فى الآخر لابد وأن يفرزه بطريقة ما ' فالجنين يظل قابعا فى تلك الظلمة ويظل الرحم

يهتاج تارة ويسكن أخرى حتى يحين الوقت ويلفظ خارجا ذلك الجسم الغريب ' وهكذا الجريمة وهكذا الذنب . إنه يكمن فى أعماق الإنسان ولكنه يكمن على مضض منه ولابد فى يوم من الأيام إلا ويعترف بذنبه وجرمه بطريقة من الطرق . هذا اعتقادى الشخصى ، فهذه المرأة لم تستطع الاعتراف خطيا لسبب ما . كما وإنها لم تعترف شفهيا . لذلك فكرت بأنها إذا وضعت قناع الولد على وجهها وهى تشنق نفسها فإن ضميرها يرتاح وتكون كأنها أعلنت جريمتها للملأ .

وبعد أن أخذت جرعة من كأسى قلت له :

- فى الواقع إنها قصة مؤثرة للغاية . ولكن لماذا قمت بكل هذا العمل ، وقد قمت به طبعا دون أى مقابل .

وبدا على ليفنغ أنه تجاهل مقصدى وقال :

- تصور يا بريتن حالة تلك المرأة النفسية والعذاب الأليم الذى قاسته ، فهى بعد موت زوجها اعتبرت نفسها المسئولة عن موت شخصين زوجها والولد . والذى يدهشنى هو عدم انتحارها قبل ذلك الوقت أو عدم إصابتها بالجنون . فالمطرقة التى يستعملها الضمير يا بريتن أين منها كل مطارق الدنيا .

وبعد أن أخذ جرعة من كأسه تابع يقول :

- أظن أنني سأستطيع نهار غد تقديم البرهان القاطع على ما قلته لك ، فقد طلبت من البوليس أن يحفر في حديقة آل ميرو وفي المكان الذي وجدت فيه جثة الزوج حيث عينه لي أحد الجيران .

- وإذا لم يجدْوا شيئا ؟

- عند ذاك تنفرط جميع قطع " البازل " وتتبخر كل افتراضاتي وتضمحل ويبقى سر اختفاء الصبي دونالد كلافن سرا أبديا بكل معنى الكلمة .

طبعا كنت مستعدا كل الاستعداد لمرافقة ليفنغ والبوليس إلى حديقة آل ميرو . وكنا هناك في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي .

بعد أن دخلنا إلى الحديقة الخلفية في صبيحة ذلك اليوم كان ليفنغ يبدو واثقا من نفسه غير أنه كان كعادته عصبي المزاج غير صبور يريد الانتهاء بأسرع ما يمكن . بينما كان الضجر وعدم الاكتراث باديا على وجه مفتش التحري . لقد جاء هذا الأخير إلى هنا غير مقتنع إطلاقا بالرواية إنما جاء فقط تنفيذا للتعليمات وإزالة للشك .

وأشار ليفنغ إلى المكان المعين وأخذ العمال يحفرون .

وأخذت أستعد لتمضية صبيحة من الضجر والملل وأنا أنتقل وراء الحفارين من مكان إلى مكان ، ولكن لم يطل انتظارى ولم تمض عشر دقائق من الوقت إلا وسمعت أحد العمال ينادى البوليس بلهفة ، وهرعنا جميعا إلى المكان وإذا بجمجمة صغيرة مازالت سليمة عالقة بإصبع المعول .

وأخذ البوليس جميع البقايا والعظام وبعد أن أجرى عليها الدروس والفحوص جاءت كلها تؤكد أنها بقايا الصبى دونالد كلافن ، والذى أكد صحة البحوث الخاتم الصغير الذى وجد بين كومة من العظام وتعرف أهل الولد عليه .

وبعد أن هدأت الضجة كنت ذات يوم عند صديقى أجلس فى صالونه الفيكتورى القديم وكان نور الصباح مباهر يسطع على الأثاث وليفنغ يجلس على مقعده المفضل ، قلت له :

- قل لى أيها العزيز ماذا كنت ستصنع لو أنهم بعد أن نقبوا كل الحديقة لم يجدوا أى شىء ؟

ومن جديد ظهرت الابتسامة المطاطة على وجه ليفنغ وأضاعت عنه بعض توازنه وقال :

ـ طبعا كنت سأطلب منك أيها العزيز بريتن بعض المساعدة لطمى الحفر وإعادة كل شىء إلى ما كان عليه ، ومن المؤكد بما أنك صديقى كنت ستساعدنى أليس كذلك أيها العزيز ؟ ..

جوزيف باين بريتن

انتقام أم

انتقام أم

وقفت سيارة فخمة أمام مكتب المستر هاكيت السمسار فى مدينة إيفى كورتر .

لقد كانت سيارة فاخرة ليس لها نظير فى المدينة التى يسكنها ، ولا كان قد رأى مثلها قبل يومه ، فقدر أن صاحبها لابد أن يكون ثريا غريبا ، ولابد أنه فى سبيله لزيارته لشراء بيت أو عقار .

التفت إلى السيدة التى كانت تجلس خلف الآلة الكاتبة بعيدا ، تمضغ قطعة من اللادن ، وتبدو على وجهها أمارات ضيق الصدر وقال :

ـ سالى !

فقالت :

ـ نعم .. يا مستر هاكيت ..

ـ يبدو أننا سنستقبل زبونا جديدا ، وعلينا أن نبدو أمامه فى

ثورة جارفة من العمل .

وابتسمت .. ووضعت الكتاب الذى كان فى يدها جانبا وهتفت تقول :

ـ ما الذى يجب أن أكتبه ؟

ـ أى شيء تريدين ..

ومضت سالى تحرك أصابعها فوق الآلة الكاتبة ، وبدا الجو فى المكتب الهادىء بعد لحظات صاخبا مليئا بالنشاط والعمل .

وأما المستر هاكيت نفسه فقد حنى رأسه فوق أوراقه ، يقلب هذه ويرفع تلك ، ويحدد النظر فى الأخرى ، كأنما هو فى عالم آخر من الجهد المتواصل ، والعمل الدقيق .

وكان ما يتوقعه المستر هاكيت أمرا واقعا .

فلقد أقبل صاحب السيارة نحو المكتب بعد أن قرأ اللافتة الملصقة فوق بابه ، وتقدم رأسا نحو الغرفة الزجاجية وبيده صحيفة مطوية .

وقد وصفه المستر هاكيت بعد ذلك بأنه كان قوى الجسم ضخم ، يرتدى بدلة لا يكاد يبين لها لون معين ، يتصبب العرق من حول

عنقه ووجهه ، أسود الشعر ، لا يزيد عمره عن الخمسين بالتأكيد ، ينعم بعينين نافذتين ، ووجه قاس شديد .

ألقى نظرة على الآلة الكاتبة لما احتوته الغرفة ، ثم التفت نحو المستر هاكيت يسأله :

ـ المستر هاكيت ؟

وابتسم هاكيت فى وجهه .. وقال :

ـ نعم يا سيدى ، ما الذى أستطيع خدمتك فيه ؟

حرك الزائر الجريدة بيده وقال :

ـ لقد قرأت اسمك فى صفحة الإعلانات الخاصة بشراء الأراضى والمنازل وبيعها .

فقال المستر هاكيت :

ـ إنى أنشر إعلانا مرة فى الأسبوع ، كما أعلن فى جريدة (التايمس) أحيانا ، لأن هناك كثيرين من الناس يوجهون اهتمامهم لمدينة كمدينتنا ، ويفكرون فى شراء أرض أو منزل فيها .. يا مستر ...

وقال الرجل :

ـ واتر برى ..

وهز رأسه ضيق الصدر من شدة الحر ، وتناول منديلا مسح به وجهه ثم قال :

ـ ما أشد الحر فى هذا اليوم ..

فقال المستر هاكيت :

ـ هو ما تقول .. وليس الجو على هذا النحو دائما . فمعدل الحرارة فى الصيف لا يزيد عن ثمانى وعشرين درجة ، كما أن عندنا البحيرة التى ترطب الجو وتخفف من وقدة الحر ، أليس هذا صحيحا يا سالى ؟

ولكن الفتاة لم تلق بالا لسؤاله ، فقد شغلت نفسها بما أمامها من الأوراق حتى تناست وجود الرجلين .

والتفت (هاكيت) إلى زائره يقول :

ـ ألا تتفضل بالجلوس يا مستر واتر برى ؟

وقال الزائر :

ـ شكرا ..

وألقى نفسه على المقعد الذى أشار إليه هاكيت وتنفس الصعداء مليا ثم قال :

ـ لقد كنت أزور المنطقة بسيارتى وقد مررت بهذه المدينة قبلا ولا أكتمك أنها أعجبتنى وأرضتنى .

فقال هاكيت :

ـ إنها بالتأكيد تستحق إعجابك .. هل تدخن سيجارة ؟

فلما أجاب الزائر بالإيجاب قدم له هاكيت صندوقا للسجاير اختار واحدا منها وأخذ يدخنه .

وبعد أن أخذ نفسا وثانيا منه التفت إلى هاكيت يقول :

ـ إنى فى عجل من أمرى ، فما رأيك لو تحدثنا بالقضية التى جئت لأجلها .

وكانت سالى فى هذه الأثناء قد عمدت إلى الآلة الكاتبة تكتب عليها ما لا طائل تحته ، فصاح بها هاكيت :

ـ هلا توقفت قليلا يا سالى ؟

وقالت الفتاة :

ـ أمرك يا مستر هاكيت .

وعادت تنظر إلى الأوراق التى كومتها أمامها حتى بدت فى شاغل عن كل ما حولها ..

وعندئذ التفت هاكيت إلى الزائر يقول :

ـ تفضل يا سيدى .. وحدثنى بما تريده ، هل هناك منزل معين أرضاك وتريد سؤالى عنه ؟

فقال الرجل :

ـ نعم .. بالتأكيد .. فهناك منزل يقوم فى طرف المدينة ، مررت به وتبادر إلى ذهنى عند رؤيته أنه لابد خال من الساكنين .

فسأله هاكيت :

ـ أهو المنزل الثلجى كما نسميه وهو الذى تقوم الأعمدة حوله ؟

فقال الزائر :

ـ هذا هو المنزل ، فقد شاهدت الأعمدة القائمة حوله ، هل هو معروض للبيع ، وهل هو مذكور بين قائمة المنازل المسئول أنت عن بيعها ؟

هز هاكيت رأسه مستغربا دهشا ..

وقال ببرود :

- نعم إنه مذكور بين أسماء البيوت المعروضة للبيع .

ومضى يبحث بين أوراقه حتى عثر على ورقة قدمها للزائر وهو يقول :

- هذه هى المعلومات المتعلقة بالمنزل المذكور ، ولكنى لا أظنك سوف تهتم به بعد أن تقرأها .

- ولم لا ؟

وقال هاكيت :

- الأفضل أن تقرأ هذه الورقة ثم نرى ما يكون بعد ذلك .

وتناول الزائر الورقة ..

ومضى يقرأ ما يلى :

" منزل قديم .. مؤلف من ثمانى غرف ، وحمامين ، ومدفأة تدار بالزيت ، تحيط به شرفات واسعة وحديقة صغيرة ، قريبة من المدينة ، السعر المطلوب : ٧٥٠٠٠ دولار " .

وكان هاكيت يراقب الزائر وهو يقرأ الورقة ، فلما انتهى منها سأله :

ـ ألا تزال تهتم به ؟

فتحرك واتر برى من مقعده قليلا ثم قال :

ـ ما الذى يدعوك إلى الاعتقاد بأن منزلا كهذا لا يثير الاهتمام ؟

ـ هل هناك شىء يتعلق بهذا المنزل يحول دون شرائه أو بيعه ؟

تحسس هاكيت رأسه بيده ، ثم قال :

ـ إذا كنت حقا يا مستر واتر برى تحب هذه المدينة وإذا كنت حقا تريد السكنى هنا ، فعندى منازل أخرى تروقك وترضيك .

وبدا الزائر غاضبا محتجا وصاح يقول :

ـ إنى أسألك عن هذا المنزل بالذات .. فما الذى تحاوله من وراء هذا الجواب .. هل أنت على استعداد لبيع هذا المنزل أم لا ؟

كان المستر هاكيت يقفز من مقعده ..

ولكنه تمالك نفسه وقال :

ـ ما هذا الكلام يا سيدى .. منذ خمس سنوات وأنا أعلن عن هذا المنزل ، لأن بيعه سيدر على ربحا محترما بالتأكيد ، فكيف يتبادر إلى ذهنك أنى لا أريد بيعه ، أو أحاول دفع الناس عن شرائه ولكنى لسوء الحظ لم أوفق حتى الآن .

ـ ما الذى تعنيه بكلامك هذا ؟

فقال هاكيت :

ـ أعنى أنك لن تحاول شراء هذا المنزل ، ولولا رغبة صاحبته سالى غريم الملحة فى أن أظل أعرضه للشارين لرفعت اسمه منذ زمن طويل بعد أن تولانى الاخفاق المتتابع مدى هذه السنوات العديدة ، فلم يتقدم لشرائه أحد من الناس لأنى واثق أن كتابة هذا الاسم بين المنازل المعروضة للبيع ليس إلا مضيعة للوقت والورق .

فقال واتر :

ـ هلا فسرت لى السبب ؟

فقال هاكيت بعد أن تناول سيجارة وأخذ يحركها بين أصابعه :

ـ لقد طلبت منى مسز غريم العجوز عرض هذا المنزل للبيع

بعد وفاة ولدها ، وقد رفضت فى أول الأمر طلبها وسألتها أن تكلف سواى ، وقلت لها فى وجهها :

- إن المنزل لا يساوى المبلغ الذى تطلبه .. بل إنه بالتأكيد لا يساوى عشرة آلاف دولار، فكيف بالمبلغ الذى تطلبه وهو أضعاف أضعاف هذا المبلغ ؟

* * *

بلع المستر واتر برى ريقه وقال :

- هل أنت متأكد أنه لا يساوى أكثر من عشرة آلاف دولار وأنها تطلب خمسة وسبعين ألفا ؟

فقال هاكيت :

- هذه هى الحقيقة ، بل إنه أيضا لا يساوى العشرة آلاف دولار أبدا ، وما أظن رجلا عاقلا سوف يدفع مثل هذا المبلغ به ، فهو متهدم يكاد ينقض على أصحابه ، وبعض أعمدته سوف تسقط بعد سنوات قليلة ، والطابق الأرضى منه ملىء بالماء فى أكثر أوقات السنة ، كما أنه ملىء بالحشرات ، لم تمتد إليه يد الإصلاح أو التحسين منذ سنوات ، وأما حديقته القائمة حوله فعبارة عن

صحراء قاحلة وأدغال موحشة .

فقال واتر برى :

ـ إذا كان الأمر كذلك .. فلماذا تطلب صاحبته مثل هذا المبلغ الكبير ؟

وهز هاكيت رأسه .. وقال :

ـ لا تسألنى .. لعل العاطفة هى السبب فقد كان هذا البيت مهد العائلة منذ الثورة .

أخذ واتر برى يحدق فى أرض الغرفة كمن يفكر فيما يجب عليه عمله .

ثم قال أخيرا :

ـ حالة مزعجة بالتأكيد ..

ونظر إلى هاكيت مليا ثم تابع يقول :

ـ حالة مزعجة ما فى ذلك شك .. وأنا الذى أرضانى هذا المنزل ، ورحت أمنى النفس بابتياعه .. حتى لقد غلب على الاعتقاد بأنه المنزل الوحيد الذى يناسبنى ..

فقال هاكيت :

- إنى أقدر شعورك .. فالمنزل قائم فى مكان لطيف هادىء ، بعيد عن الضجة والصخب ، تحيط به الأشجار والأرض المخضرة . ولكنه لا يساوى أكثر من عشرة آلاف دولار ، وأما المبلغ الذى تطلبه صاحبته فشىء جنونى لا يوجد هناك ما يبرره على الإطلاق ..

وضحك هاكيت ثم استطرد :

- ولست أكتمك أنها - أى صاحبة المنزل طبعا - لا تملك شيئا يذكر من المال ، ولابد أنها قررت بيع المنزل بعد وفاة ولدها الوحيد الذى كان يعمل فى المدينة ، ويبعث لها بمبلغ مما يكسبه فى عمله يكفيها للحياة فى هذه المدينة .

فلما مات وانقطع المورد الوحيد عنها وجدت من الجنون الاحتفاظ بهذا المنزل الكبير وهى وحيدة فريدة .. فقررت عرضه للبيع ، ولكنها فعلت ذلك قسرا ورغما عما كانت تفرضه عليها عاطفتها من الاحتفاظ به ، ولما وجدت نفسها بين المنطق والعاطفة ، عمدت إلى حيلة ترضى فيها هاتين النزعتين ، أعلنت عن رغبتها فى البيع إرضاء للمنطق الذى يقضى بذلك ، ولكنها عادت

فحددت ثمنا هو أضعاف أضعاف قيمة المنزل ، إرضاء لعاطفتها ، ورغبة منها فى الاحتفاظ بهذا الوكر العائلى حتى الساعة الأخيرة .

وابتسم هاكيت ثانية ثم قال :

ـ هذا الذى يدور فى رأسها باعتقادى ، وهو الذى دعاها إلى أن تفعل ما فعلت ، وأن تصر على هذا المبلغ مدى هذه السنوات الخمس التى مرت ، ورغم أن أحدا لم يحاول شراؤه ، ورغم أنها كانت واثقة من استحالة ذلك بهذا السعر المرتفع .

فقال واتر برى :

ـ نعم .. لابد أن يكون الأمر كذلك ..

وانتصب واقفا وقال لهاكيت :

ـ سأخبرك بما سأفعله .. سأذهب لمقابلة صاحبة المنزل ، وسأحاول إقناعها بتخفيض سعره .

فهتف هاكيت :

ـ لن يجديك هذا نفعا فقد حاولت إقناعها بتخفيض سعرها أكثر من مرة مدى هذه السنوات الخمس الماضية ، ولكنها كانت

ترفض دائما وأبدا .

فقال واتر برى :

- من يدرى .. فقد تقبل مع شخص آخر .

فرفع هاكيت يديه إلى السماء وقال :

- نعم من يدرى .. فهذه الدنيا مليئة بالعجائب والغرائب ، وقد تقع أخيرا معجزة .. وأنا مستعد على كل حال لمساعدتك ما دمت عازما على زيارتها .

- حسنا .. سوف أذهب إليها الآن .

فقال هاكيت :

- إذن سأتصل بها بالتليفون وأخبرها بزيارتك .

* * *

وصل واتر إلى منزل مستر (سادى غريم) دون أن يلاقى فى طريقه سيارة واحدة .

وأوقف سيارته بجانب الحاجز الخشبى المتهدم الذى يحيط بالحديقة والمنزل معا .

لقد كان المكان كما أخبره هاكيت مثلا بارزا لعدم الاهتمام والعناية ، فقد كانت الحجارة تملأ الأرض ، والأعشاب تغطى جوانبها ، والأقذار لا تجد من يزيلها .

ولما وقف أمام الباب ضغط على زر فيه ، ففتحت له امرأة قصيرة القامة ، مترهلة الجسم بعض الشيء ، تدل ملامحها على الحزم والشدة ، وصلابة الأعصاب .

هتفت تقول لما رأته :

- لابد أنك المستر واتر برى فقد حدثنى المستر هاكيت يقول إنك فى سبيلك لزيارتى .

فقال المستر واتر:

- نعم يا مستز غريم .. كيف حالك .. وكيف صحتك ؟

فقالت بهدوء :

- إنى بأحسن حال .. لابد أنك تريد الدخول إلى المنزل .

فقال :

- طبعا فإن الجو خانق هنا فى الخارج .

ـ إذا تفضل بالدخول .. لقد هيأت لك قدحا من شراب الليمون .. وسأضعه فى البراد .. وأرجوك أن تعلم يا مستر واتر برى بأنى لست من الأشخاص الذين يحبون النقاش والجدل .

وقال واتر برى وهو يسير خلفها :

ـ طبعا .. طبعا ..

* * *

كان داخل المنزل مظلما باردا ، وكانت كل النوافذ مقفلة مسدلة الستائر .

ذهبت به إلى الصالون المؤثث ببعض الأثاث القديم ، والسجاد العتيق ، حيث أشارت إلى مقعد جلس عليه ، وجلست هى على مقعد آخر بقربه .

وبعد لحظات قالت :

ـ إذا كان عندك ما تقوله يا مستر واتر برى فتكلم .

تنحنح المستر واتر برى قليلا .. ثم قال :

ـ لقد كنت أتحدث يا مسز غريم إلى وكيلك المستر هاكيت .

مقاطعته قائلة :

- إنى أعرف القصة .. ولابد أن هاكيت مجنون .. حين سمح لك بزيارتى وهو يعلم رأيى فى الموضوع ، وإنى لن أبدله أبدا .

فقال واتر برى :

- لست أدرى إذا كان هذا هو غرضى .. كل ما فى الأمر أنى رأيت أن أتحدث إليك قليلا .

فقالت وهى تضع قدما فوق قدم :

- إذا كان الأمر كذلك .. فتكلم .

عاد واتر برى يجفف عرقه ثم قال :

- دعينى أفسر لك موقفى يا مسز غريم ، إنى رجل ممن يعملون بالتجارة وليس من عادتى طبعا إضاعة الوقت فيما لا طائل تحته . كما إنى من العزاب ، وقد أجهدت نفسى فى العمل واستطعت أخيرا جمع ثروة محترمة ، ومن حقى بعد كل هذا أن آخذ حظى من الراحة ، وقد أرضتنى هذه المدينة ، وأعجبنى جوها وقد مررت بهذا المنزل ، وأنا فى طريقى إلى (البانى) منذ سنوات ، وخطر فى بالى عند رؤيته أنه أصلح مكان أصرف فيه بقية حياتى بعيدا

عن ضجة المدن الكبيرة وصخبها .

ـ نعم .. ثم ماذا ؟

ـ ثم إنى لما أتيت أزور هذه المدينة هذا الصباح ، ورأيت المنزل فى مكانه ، عدت إلى التفكير فيه وشرائه ، بعد أن أعجبنى وأرضانى .

وقالت مسز غريم :

ـ ولا أكتمك أنا أيضا أن المنزل يرضينى ، ولهذا طلبت فيه سعرا أعتقد أنا أنه ليس عاليا أبدا .

فقال واتر برى وقد بدا العجب على وجهه :

ـ ليس عاليا .. عليك أن تعرفى يا مسز غريم بأن هذا المنزل لا يساوى أكثر من ...

وصاحت مسز غريم :

ـ هذا يكفى .. لقد أخبرتك يا مستر واتر برى أنه ليس من شأنى مناقشة الناس فى أمورى وشئونى ، فإذا كنت ترفض الموافقة على السعر الذى عينته ، فأنت وشأنك .

ـ ولكن يا مسز غريم ..

- نهارك سعيد يا مستر واتر برى .

ووقفت .. وكان هذا إيذانا بإنهاء المقابلة ، وأن عليه مغادرة المنزل .

ولكن مستر واتر برى لم يتحرك من مكانه .

هتف يقول :

- لحظة يا مسز غريم ، إن ما سأقوله هو الجنون بعينه ، ولكن سأدفع لك المبلغ الذى تطلبين .

ونظرت إليه نظرة فاحصة طويلة .

ثم قالت له :

- هل أنت واثق مما تقول يا مستر واتر برى ؟ ! .

فقال :

- بالتأكيد .. عندى من المال ما هو فوق الكفاية ، وإذا كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى تريدين أن يتم عليها الاتفاق بيننا فأنا من الموافقين .

وابتسمت وهى تقول :

ـ لابـد أن قـدح الليمـون الـذى هيأتـه لـك قـد أصـبح بـاردا ، سأذهب لآتيك به .. ثم أقص عليك شيئا عن هذا المنزل .

* * *

كان يجفف عرق رأسه بمنديله لما عادت تحمل شراب الليمون إليه ..

تناول القدح مسرعا ، وجرع جرعة كبيرة منه بجشع وشهية .

وبدأت حديثها بعد أن عادت إلى مقعدها الهزاز وقالت :

ـ لقد أصبح هـذا المنـزل ملكـا لعائلتنـا منذ أول القـرن الثـامن عشر ، وقد صار بناؤه قبل هذا التاريخ بخمس عشرة سنة ، وقد شاهد النور فيه كل أفراد العائلة ، وفى غرفة النوم الواقعة فى الطابق الثانى ، إلا ولدى ميشال الذى ولدته فى المستشفى .

" ولست أكتمك .. إنه ليس بالمنزل القوى كأمثاله من منازل هذه المدينة .. وبعد أن ولدت ميشال حدث طوفان فى الطابق الواقع تحت الأرض ، لم نتمكن من إخراج الماء منه حتى الآن "

" ولقد أخبرنى هاكيت أن فى المنزل بعض البق ، ولكنى لم أشاهد هذه الحشرة المزعجة حتى الآن ، كما لا أكتمك أنى أحب

هذا المنزل الذى شاهد فيه النور كل عائلتى ، والذى يرتبط تاريخهم منذ أول بنائه حتى الآن ..

وقال واتر برى مؤكدا :

ـ طبعا .. طبعا .

ومضت المرأة تقول :

ـ لقد توفى والد ميشال حين كان هذا فى التاسعة من العمر ، وكان موته شديدا قاسيا علينا ، فاضطررت لكسب عيشى بالخياطة ، وبالمورد القليل الذى تركه لى والدى ، والذى لا يزال يقوم بأودى حتى اليوم ، وإن كان هذا باعتدال وتعب كثيرين .

والواقع أن وفاة والد ميشال كانت أشد عليه منى ، فنشأ بعيدا عن عنايته وعطفه ، فالتمس الانطواء على نفسه ، والمغامرة فى الأرض لتخفيف وطأة هذه الصدمة .

وهز واتر برى رأسه موافقا .

ومضت المرأة تقول :

ـ ولما تخرج ميشال من المعهد الثانوى ، غادر هذه المدينة إلى نيويورك طلبا للرزق ، وقد فعل ذلك رغما عنى وبغير إرادتى ،

ولكنه كان طموحا ، وقد ظن كغيره من الشباب أن نيويورك أوسع مجالا وأكثر أسبابا .

والواقع أنى لا أعلم شيئا عن العمل الذى كان يعالجه فى نيويورك ، ولكن لابد أنه وفق فيه .. لأنه كان يرسل لى بعض المال فى فقرات منتظمة ، ولتعلم أنى لم أشاهده ولا مرة واحدة طيلة السنوات التسع التى عاشها بعيدا عنى .

وقال واتر برى بصوت حزين :

ـ آه ..

ومضت المرأة تقول :

ـ ولم يكن هذا أمرا من السهل احتماله ، ولكن الموقف كان أشد خطورة لما عاد ميشال إلى وهو فى ضيق شديد ..

وأخرج واتر برى من حلقه زفرة جديدة ، توكيدا لعطفه وأسفه ..

ومضت المرأة تقول :

ـ ولكنى لم أدرك حالا نوع المشكلة التى وقع فيها .. فقد أتانى فى منتصف الليل .. بادى الهزال والضعف .. لا يحمل شيئا معه من

الملابس والحقائب .. إلا محفظة سوداء وحيدة ، فلما حاولت أخذها منه كاد يضربني .. أنا أمه ..

أخذته إلى فراشه ومددته عليه كما كنت أفعل لما كان صغيرا .. وكنت أسمعه يبكى طوال الليل ..

وفى اليوم التالى سألنى أن أغادر المنزل لساعات لأنه يريد القيام بعمل خاص فيه .

لم أحاول سؤاله عما هو فى سبيله ، ولا حاول هو تفسير ذلك .

ولكنى لما عدت فى المساء إلى البيت وجدت المحفظة السوداء قد اختفت .

ولمعت عينا المستر واتر برى وهو يرشف رشفة محترمة ثانية من شراب الليمون .

وسألها :

ـ ما معنى هذا ؟

فقالت :

ـ لم أعرف السبب حالا .. ولكنى عرفت ذلك بعد وقت قصير وبصورة مفجعة .. ففى هذا الليل اقتحم منزلنا رجل . لم أعلم

بوجوده إلا حين سمعت صوته فى غرفة ولدى ..

فأسرعت إلى غرفته ووقفت خلف بابها أستمع إلى الحديث ، الذى كان يدور فى داخلها .. ولكننى لم أسمع إلا صراخا وتهديدا ثم ..

وقطعت حديثها ..

ولاذت بالصمت مليا ..

ثم اهتز جسمها قليلا .. ومضت تقول :

ـ ثم سمعت صوت طلقة نارية ..

دفعت الباب .. فإذا الرجل المجهول قد اختفى ، وإذا ولدى ممدد على الأرض .. ميتا ..

وتحرك الكرسى من تحتها ..

ثم تمالكت نفسها وعادت تقول :

ـ حدث هذا منذ خمس سنوات ..

ثم عرفت الحقيقة بعد ذلك .. عرفتها من البوليس .. لقد تعاون ميشال ولدى مع الرجل المجهول على سرقة مبلغ كبير من المال ..

لقد أخذ ميشال المال المسروق وهرب به ، عازما على الاحتفاظ به لنفسه .. وقد خبأه فى مكان ما من هذا المنزل ، ولا أدرى أين هو حتى الآن ..

ثم أقبل الرجل الآخر يبحث عن ولدى .. وسأله أن يعطيه نصيبه من هذا المال .. ولما علم باختفاء المال قتل ولدى ..

ونظرت إلى المستر واتر برى ثم قالت :

ـ وعندئذ عرضت المنزل للبيع وطلبت خمسة وسبعين ألف دولار ثمنا له .

وكنت أعلم أن قاتل ولدى لابد أن يأتى ويحاول شراء المنزل بأى ثمن .

وكان على أمام هذا أن أنتظر مجىء الرجل الذى سيدفع مبلغا كبيرا كهذا لشراء منزل عتيق متهدم .

وأخذت تضحك .

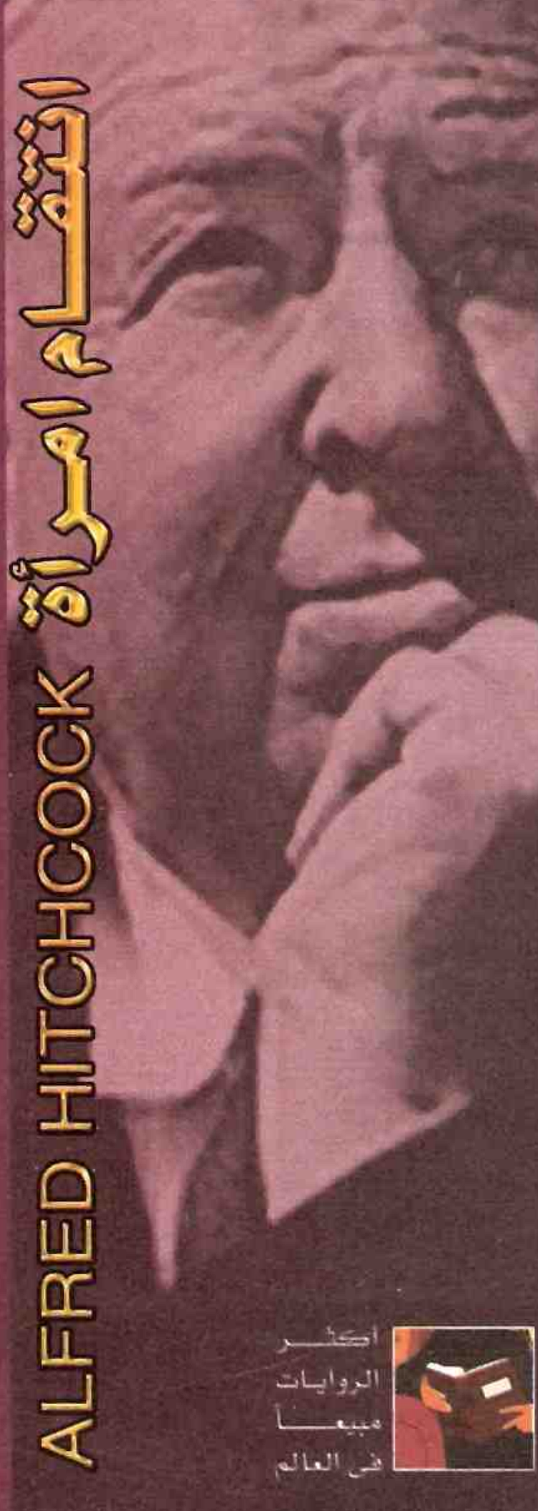
وأعاد واتر برى قدح الليمون إلى مكان على المائدة الصغيرة .

واختفى اللمعان من عينيه .. وبدا رأسه يكاد ينتفض من مكانه لا يثبت يمينا ولا شمالا .. بعد أن أخذ السم سبيله إليه

ولابـد أنـه أدرك هـذا فـى هـذه اللحظـة فهتـف يقـول بصـوت مبحوح :

- يا إلهى .. إن لهذا الشراب طعما غريبا .

هنرى سليسر



INTERNATIONALITY
العالمية للكتب والنشر